

د. عبد الله الشارف

تجربتي الصوفية

مساهمة في فهم الكيان الصوفي



الكتاب الواحد والثلاثون

سلسلة شرفات الزمن 2011

المدير: عبد الكبير العلوي الإسماعيلي
الإخراج التقني: خديجة فارس
ردمد: 3792 - 2028
الإيداع القانوني: 2011 MO 0431
الترقيم الدولي (ردمك): 9 - 08 - 516 - 9954 - 978
النجاح الجديدة - الدار البيضاء
التوزيع: سبريس
العنوان: 153، شارع سيدي محمد بن عبد الله رقم 7 - العكاري - الرباط
الهاتف + الفاكس: 44 98 29 37 212 00
البريد الإلكتروني: e-mail: az_zaman@hotmail.com

الدكتور عبد الله الشارف *

تجربتي الصوفية

مساهمة في فهم الكيان الصوفي

* بطاقة التعريف في الصفحات الأخيرة من الكتاب

منشورات الزمن

مقدمة

إن اجتياز الفاصل العظيم أو الهوة السحيقة بين المحدود واللامحدود، بين الله والإنسان، أمر مستحيل على الصعيد المنطقي والفيزيائي، إلا أنه قد يبدو ممكنا عن طريق الشعور والوجدان، بمعنى انه إذا كان إدراك الذات عند المؤمن الرباني العارف بالله قد يؤدي إلى إدراك العالم الوجودي كله، بات من البديهي أن يؤكد كثير من رجالات التصوف قدرتهم على العبور مدا وجزرا بين شاطئ الإنسانية وشاطئ التأله.

وإذا أمكن التسليم بأن الحياة، من وجهة نظر معينة، غير يقينية ووهمية، أو تكاد تكون حلما يتراوح بين الفرع والنشوة الخاطفة، وأن هذه التجربة لا تحقق شرطها الوجودي إلا بالموت باعتباره اليقين المطلق، فإن الصوفية انطلاقا من ذلك، يؤكدون مصداقية تجاربهم عروجا نحو المطلق، مقررين بضرب من الحسم على ضوء الحياة الدنيا من جانب، وعلى الوجود الحتمي المطلق الذي يجاهدون للوصول إليه من جانب آخر، إن الله غير العالم، وأن الخالق غير المخلوق، ومن ثم فالثنائية بين الحق والخلق بديهية من بديهيات الإيمان، وعقيدة يعتقدها كل مؤمن بوجود إله مغاير عن المخلوقين، لكن هذه الثنائية تغيب عن وعي المتصوف عندما يغمره الشعور بالوحدة وتتملكه الرؤية الواحدية، تلك الرؤية الناتجة عن التذوق الخاص، والتجربة الفياضة. إن الثنائية تتلاشى تدريجيا في شعور الصوفي حتى لا يرى إلا الله وحده هو الموجود، وأن العالم وهم. وهنا تحل الواحدية محل الثنائية في التجربة الصوفية.

ثم إن الصوفي يعي تجربته الصوفية بوصفها سفرا نحو المطلق والأقاصي. وهذا السفر يقوّمه الصوفي بما يسفر عنه، دون أن يكون الإسفار نهاية للسفر. فهو بداية متدفقة، وتتجدد باستمرار خصوصا إذا كان السفر سفر تيه، ولقد أشار ابن عربي إلى هذا المعنى في كتاب **"الإسفار عن نتائج الأسفار "ضمن" رسائل ابن عربي"** حيث يقول: «الأسفار ثلاثة لا رابع لها اثبتها الحق عز وجل، وهي سفر من عنده، وسفر إليه، وسفر فيه، وهذا السفر فيه هو سفر التيه والحيرة.»

والتجربة الصوفية في ممارستها تعبير أيضا عن تلبية النداء الروحي لدى أشخاص قادهم التأمل، أو الفلسفة، أو العزلة، أو فهم معين للعقيدة، أو عوامل نفسية واجتماعية، إلى سلوك درب التصوف وممارسة التجربة. بيد أن هذا النداء الروحي الذي أسفرت عنه تلك التجربة، كان هو نفسه نتيجة من نتائج تضخم الجانب الروحي الذي اعترى المتصوف قبيل الشروع في السفر، أو الإبحار في محيط التجربة الصوفية، وهو ما يتعارض مع مقصد من مقاصد الشريعة المتمثل في إقامة التوازن والاعتدال بين عنصري الروح والطين داخل الكيان الإنساني.

ثم إن التجربة الصوفية شرط أساسي في كل معرفة أو سلوك صوفي، لأن المعرفة الصوفية لا تستفاد من الكتب، كما أن الأحوال الصوفية لا ترد على أصحابها إلا بعد المجاهدات والرياضات الروحية. ذلك أن المجاهدات الشاقة والرياضات تعتبر أسا من أسس التجربة الصوفية، وهي التي تفضي بالصوفي إلى المقامات والأحوال.

ويرى أهل التصوف أن العلوم المستفادة من التجربة الصوفية والروحية هي علوم ذوقية كشفية، وأن عنصر الكشف فيها، أعلى وأرفع من عنصر العقل، فمن الكشف الذي هو طريق العارفين تتوارد علومهم، ومن معدنه يتلقون أنوارها وأسرارها.

ومن ناحية أخرى، فإن الحضارات الكبرى، عبر التاريخ الإنساني، قد عرفت التصوف والتجارب الصوفية، مثل الحضارة الهندية والصينية واليونانية، كما

اشتهر ذلك في حضارتنا العربية الإسلامية. وعرف التصوف عند اليهود والنصارى، واشتهر متصوفتهم بتجاربهم الصوفية. والتصوف يأخذ دائما الخصائص التي تنسجم مع انتسابه لهذا الإطار الحضاري الروحي أو ذاك، إلى جانب جملة من الخصائص والعناصر المشتركة للتصوف.

ولقد ترددت كثيرا في كتابة تجربتي الصوفية لأسباب عدة، منها أن التجربة الصوفية تعبر عن معاناة وجودية عميقة ومعقدة، وترتبط بفضاءات روحية ونفسية لا محدودة، تستعصي على الوصف والنعت، وفي غمار الذوق الصوفي تخرس العبارات، فلا بيان ولا نطق، بل ذهب القوم إلى أن العجز عن التعبير علامة على صدق وعمق التجربة، فقيل: «علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم، فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال»[1].

وكيف يمكن رصد ووصف وتقييم التجربة الصوفية، المنبثقة من القلب، ذات الأطوار والحالات والتقلبات الغريبة. أبمنطق العقل أم بمنطق اللغة؟ فمنطق العقل عاجز عن رصد مسار التجربة الصوفية اللامعقولة، ومنطق اللغة أكثر عجزا عن ترجمة رؤى وأحوال ومقامات لم يعبر عنها أصحابها إلا رمزا؛ وكلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، ولما كانت اللغة مصبوبة في قوالب العقل ومعبرة عن واقع الناس، وسلوكهم وثقافتهم الملموسة عبر الزمان والمكان، لم تستطع الإفصاح أو التعبير عن تجربة روحية ذوقية تنتمي إلى عالم آخر منفصل عن الزمان والمكان الدنيويين.

وكل ما يقال عن مضمون التجربة في الإدراك ليس هو مضمونها المدرك على الحقيقة، وإنما هو أوصاف تقريبية تلبس أثواب اللغة؛ فلا يكفي القول فيها ولا الكتابة عنها، أن تصيب منها حقيقة الإدراك، ما لم تصل أنت "ذوقا" إلى الأصل المدرك.

1 - السهروردي، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، ط 1، بيروت 1966، ص. 526.

ومن أسباب ترددي في كتابتها أيضا، طول العهد الذي مر على هذه التجربة، ما يقرب من ثلاثة عقود، وهو زمن ليس باليسير، وكاف للتاثير سلبا في الذاكرة والعبث بمخزونها، فكثير من الأحداث والوقائع والأفكار المرتبطة بالموضوع قد طواها النسيان، وما بقي منها قد فقد كثيرا من حيويته وحرارته، خاصة أن التجربة الصوفية قائمة على الوجدان والشعور العميق، والذوق الباطني، والحالات النفسية المتجددة، وهي أشياء ومعاني يصعب أو يستحيل استحضارها واستدعاؤها قصد وصفها وتحليلها، وقد كان الأمر ممكنا زمن ولادتها وتدفقها.

ومن أسباب التردد كذلك: التوبة والرجوع عن التصوف والإقبال على طريق السلف الصالح رحمة الله عليهم، ذلك أنني لما تبت إلى الله، ورجعت عن أفكاري ومعتقداتي الصوفية، لم أعد أحفل بعالم التصوف، وتمنيت أن لم اكن قد مارست التصوف ولا اطلعت عليه، ولذا اجتهدت كثيرا في نسيان هذه المرحلة من حياتي.

ومن الأسباب أيضا: خوف الوقوع في العجب والرياء، لأن كتابة التجربة الصوفية يعني الحديث عن العبادة، والمجاهدة النفسية والرياضة الروحية: أي اني سأحدث الناس عما بذلته من مجهودات في سبيل تزكية النفس وإصلاحها، وخوض غمار التجربة الصوفية، الأمر الذي سيجعلني أسقط لا محالة في مستنقع العجب والغرور والشرك والرياء...

وكذلك مما جعلني أتردد في كتابة هذه التجربة: صعوبة التحقق بالموضوعية والتجرد في مثل هذه الكتابات: لا سيما أن الكاتب هو نفسه موضوع الكتابة والتحليل، فالمسافة بينه وبين ذاته منعدمة، مما يؤثر سلبا في طريق التحليل ويضعف من قيمة الأفكار المستنتجة.

لكن بعد استشارة شيخي وأستاذي الفقيه **محمد بوخبزة** وكذا صديقي وأستاذي الشيخ **محمد محفوظ** في الموضوع، تبين لي أن الإقدام على هذا العمل خير من الإحجام عنه، خصوصا بعد حصول التوبة والندم والرجوع إلى المحجة

البيضاء، ولما في ذلك من تنبيه ونصيحة للمسلمين الذين تصوفوا، وتحذير للذين يجهلون التصوف، أو لأولئك الذين هم في طريقهم إليه.

لم أكن خلال الأيام والأسابيع التي سبقت قدومي إلى فرنسا، أفكر في التصوف أو أقرأ عنه، وإنما كنت أحلم فقط بمتابعة دراستي الاجتماعية في جامعة باريس، لكن بعد انقضاء السنة الدراسية الأولى وحصولي على دبلوم الدراسات العليا المعمقة، فوجئت بانجذاب عميق نحو عالم التصوف، وإن المرء ليقف مستغربا حيال هذا الطارئ الذي يباغث طالبا عربيا حديث العهد بالجامعة الفرنسية، يحمل في باطنه آمالا وأحلاما متعلقة بالدراسة والمستقبل، وبعبارة أخرى إنه لمن المفارقات العجيبة، أن يقدم شاب من بلاد عربية مسلمة إلى مدينة أوربية قصد الدراسة والتحصيل، ثم يقذف به في عالم التصوف بحثا ودراسة وممارسة؟!!.

ومهما أعملت عقلي في الموضوع باحثا عن السبب الرئيس لهذا الانجذاب، فلن أصل إلى نتيجة مقنعة ويقينية، بيد أن جهلي بالسبب الرئيس، غير المباشر أو غير المعلن، لا يمنعني من العلم والإحاطة ببعض الدوافع والعوامل المباشرة التي تكمن وراء هذا الأمر، من بينها عامل الغربة، وهو من العوامل المؤثرة في نفسية الإنسان المهاجر، ولا يعرف آلام الوحدة والغربة إلا من يعانيهما ويقاسي مرارتهما، خاصة إذا كان مجتمع الهجرة يختلف، اجتماعيا وعقديا وثقافيا، عن المجتمع الأصلي. هنالك تغدو الهوية غرضا وهدفا، حيث يستباح فناؤها وينتهك حماها، لقد كان المجتمع الجديد بحضارته ومدنيته وقوته وإغراءاته وسحره... أشبه بشلال قوي يجرف بمائه كل الأشياء التي تعترض سبيله، فلابد من ملجأ التجئ إليه وملاذ ألوذ به، هناك تراءى لي جمال التصوف ففزعت إليه واعتصمت به.

وقد يكون من العوامل المباشرة أيضا، إعجابي الشديد بكتاب ومفكرين فرنسيين دخلوا في الإسلام عن طريق التصوف، وانبهروا بالتراث الصوفي

الإسلامي، وشرعوا في نشر هذا التراث ترجمة ودراسة، كما عكفوا على ممارسة الحياة الصوفية، سواء على الطريقة الفلسفية أو الطرقية، وأذكر من بين هؤلاء الكتاب، الباحث والفيلسوف الصوفي **رونيه كينو**، الذي أنهى حياته في القاهرة وعرف بعد إسلامه، بالشيخ **عبد الواحد يحيى**، وترك مؤلفات صوفية وفلسفية، وأخرى في نقد الحضارة الغربية. ومنهم **روجي غارودي**، الفيلسوف الماركسي المعروف، الذي أسلم وكتب في الحضارة الإسلامية بأسلوب فلسفي وصوفي، ومنهم أيضا **ميشال تشولد فسك**، الأستاذ الجامعي صاحب الأبحاث والتآليف في التصوف الإسلامي، وأمثال هؤلاء كثيرون في فرنسا وباقي دول البلاد الغربية. وناهيك عن المحاضرات والندوات التي تعقد في موضوع التصوف، والرسائل والأطروحات الجامعية، التي تتناول تاريخه ومجالاته ومظاهره. وحلقات الذكر على الطريقة الشاذلية أو النقشبندية، إلى غير ذلك مما يتعلق بالممارسة الصوفية.

ثم إنني لا استبعد طفولتي الصوفية كعامل مساعد ومهيء لهذا الانجذاب والإقبال على التصوف في باريس؛ إذ الماضي يؤثر في الحاضر، وما تختزنه الذاكرة يطفح على سطح الشعور عند الضرورة، ومن هنا فإن طفولتي الصوفية قد شكلت جزءا مهما من الأرضية الصلبة التي تأسست فوقها تجربتي الصوفية، حيث أعدت توظيف كثير من المعاني والصور والرموز الصوفية التي ظلت متجذرة في ذاكرتي منذ ستينيات القرن الماضي الميلادي، عندما كنت مريدا صغيرا من مريدي الزاوية العيساوية الشاذلية بتطوان.

ولعل تأثري بتجارب الصوفية الكبار، كـ **أبي حامد الغزالي**؛ و **محيي الدين ابن عربي**، وسلطان العاشقين **عمر بن الفارض**، وغيرهم من أعلام التصوف الذين اكثرت من قراءة كتبهم ورسائلهم، يعتبر كذلك عاملا أساسيا في سلوك درب التصوف، وكان إعجابي بتجاربهم ونظرياتهم الفلسفية والتربوية، يدفعني كي اتقمص شخصيتهم حتى كدت أناجي أرواحهم من شدة المحبة والإعجاب، كما صاروا قدوة لي في ميدان السلوك، والرياضة الروحية، والعزوف عن الدنيا.

وخلاصة القول، إن ما ذكرته من العوامل والأسباب التي حملتني على التصوف قد لا تكون متضمنة للسبب الرئيس، ولعل ذلك السبب قد غاب عن وعيي في خضم الحالات النفسية الشديدة التي عادة ما تعتري صاحبها قبيل ولوج التجربة الصوفية، والاندفاع في هذا الخيار الروحي الفردي. تلك الحالات التي كثيرا ما تتميز بظهور دافع في شكل النداء الباطني أو الهاتف الغيبي، أو الصوت الخفي، ذلك النداء الذي يدفع المرء نحو اختيار التصوف.

وبعد، فإن تجربتي الصوفية التي سطرتها في هذا الكتاب لا ترقى، بطبيعة الحال، إلى مستوى التجارب الصوفية لأعلام التصوف الكبار، بل ما تذوقت مثل ما تذوقوه من حالات ومعارف وجدانية، ولا شممت مثل ما شموه من روائح الروحيات العبقة؛ ولا أعرج بي إلى حيث أعرج بأرواحهم؛؛ وإنما طفت يسيرا بالذي فيه أقاموا، ولم أظفر ولله الحمد والمنة، بما ظفروا به؛ ولم أغرق فيما غرقوا فيه؛ بل رضيت من الغنيمة بالإياب؛ ولله الحمد أولا وأخيرا.



الفصل الأول :

من الطفولة إلى الدراسة الجامعية

1- الطفولة الأولى

2- مريد الطريقة العيساوية

3- الدراسة الثانوية والجامعية

4- الدراسات العليا بفرنسا

1- الطفولة الأولى

نشأت في منزل صغير يشتمل على ثلاث حجرات، بحي يدعى باب السعيدة، وهو أحد الأبواب المقامة على السور المحيط بمدينة تطوان القديمة. وكان هذا الحي كغيره من الأحياء التي بدأت تتولد خارج أسوار المدن العتيقة بالمغرب، مثل فاس، ومكناس، ومراكش، وسلا، وطنجة، وآسفي وغيرها، وذلك بعد مجيء الاستعمار. بيد أن هذا النمط من العمران في نهاية الخمسينيات، أي في السنوات الأولى من طفولتي، كانت تعلوه مسحة من الجمال الرومانسي، حيث أن الدور المتناثرة هنا وهناك، تحسبها في فصل الربيع قطعا من الأحجار الكريمة الملقاة فوق بساط أخضر. ثم إن معظم المنازل المشيدة وقتئذ، تجدها إما قائمة وسط بستان صغير، أو مشرفة من الجهة الأمامية أو الخلفية على حديقة صغيرة غاية في الجمال والبساطة، كما هو الشأن بالنسبة للمنزل الذي نشأت فيه. والحقيقة أن أهل تطوان، كغيرهم من أهالي المدن التي تربطهم بالأندلس روابط النسب والتاريخ والحضارة، كانوا منذ سقوط غرناطة، وإلى حدود العقدين الأول والثاني من الاستقلال السياسي، يحافظون بعناية فائقة على ماتبقى من إرثهم الأندلسي، لاسيما فيما يتعلق ببعض العادات والتقاليد الاجتماعية، وبالمآكل والملبس وشكل البناء وأسلوب التأثيث المنزلي. ولقد كان من لطائف الأقدار، أن قضيت سنواتي الأولى حتى سن البلوغ، في هذا الجو المفعم بنسمات البقية الباقية من حضارة سادت ثم بادت.

ومع حلول السبعينيات، اشتد لهيب آلة التغريب، وذلك على يد المستغربين الذين تسلموا معاولها من المستعمرين، فتغيرت معالم المجتمع المغربي، وأصاب التغريب النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كلها، وظهر الجيل الجديد الذي ولى وجهه شطر أوربا، وتعلق بالجانب المتفسخ من ثقافتها وحياتها، فانمحى ما كان قد تبقى من شهامة الرجل المغربي ومروءته، وأودعت الثقافة الأندلسية والثقافة المغربية الأصيلة في المتاحف. واستعيض عنها بالثقافة السياحية الفلكلورية التي تلبي رغبة السائح!! تلك الثقافة القائمة على الميوعة والخلاعة من خلال الحفلات الفلكلورية، والسهرات الفنية، حيث يكثر الغناء والرقص. كما ينسب إلى هذه الثقافة ما يسمى بإحياء مواسم الأولياء والاهتمام بأضرحتهم، إلى غير ذلك من فنون الشعوذة والدجل والبلاهة. ولعلي لا أعدو الحقيقة إذا قلت بأن الفلكلور بصورته الحالية يعبر عن المظهر الجامد والمشوه لجانب من تراثنا الثقافي؛ ذلك أن المستعمر عمل، بما أوتي من دهاء ومكر، على مسخ تراثنا، كما حاول إقناعنا بأن هذا التراث لا مصير له إلا متاحف التاريخ، وهكذا تم تحويله إلى إرث تاريخي نفتخر به ونتغنى بأمجاده، ونختار منه النماذج الفلكلورية التي تكرس النظرة الغربية.

وعلى مسافة بضعة أمتار من المنزل، يوجد فدان السيد اللبادي، ذلك المكان الفسيح المخضر، حيث كان يحلو لي أن ألعب وأركض مع إخوتي؛ عبد الوهاب، وزبيدة، ورشيدة، وحورية، وكثيرا ما كان يشاركنا في لعبنا بنات عمنا رحمه الله، وبعض أطفال الحي مثل أولاد الفقيه العربي اللوه وأولاد محمد الريسوني، وكذا أولاد محمد الصفار ومحمد الفخار... ولم نكن نفزع كفزعنا يوم نرى السيد اللبادي صاحب الفدان، وهو متجه نحونا يطاردنا، كي يبعدنا عن ضيعته، خاصة عندما يكون الزرع قد نما، والسنابل قد أينعت.

وكم كنت أشعر بالسعادة والفرح، وقد أرهقت بدني باللعب، لما يحملني أبي على ذراعه اليمنى، فور رجوعه من العمل زوالا أو قبيل الغروب. لقد كان رحمه

الله دباغا يعمل في دباغة الجلود، تلك الحرفة التي ورثها عن أبيه وجده، بل مارسها أجدادي في هذه المدينة ما يقرب من ثلاثة قرون. فكان يقضي يومه متنقلا بين المكان الذي توجد فيه صهاريج الدباغة، والدكان الذي يبيع فيه الجلود المدبوغة. ولم يكن عمله يمنعه من قراءة كتب الفقه والحديث أو الاستماع إلى دروس بعض فقهاء المدينة، مثل الفقيه محمد الفرطاخ، أو أحمد الرهوني، أو الفقيه الداعية تقي الدين الهلالي رحمهم الله أجمعين.

ثم اقتضت مشيئة الله أن نرتحل عن هذا الحي الوديع مهد الطفولة والصبا، فقد باع أبي المنزل الصغير بحديقته الجميلة، واشترى بدلا منه منزلا داخل المدينة الأندلسية القديمة بحي السوق الفوقي. وكان انتقالنا إلى البيت الجديد بعد ولادة أختي خديجة ببضعة أسابيع، وذلك سنة 1960م. لم يكن هذا المنزل مشرفا على بستان ولا يوجد على مقربة منه حقل ولا شجر، ولذا مقته منذ الوهلة الأولى. فلم أعد ألهو وألعب مثلما كنت أفعل فيما قبل، كما فقدت أصدقاء الطفولة، بل كنت أشعر كأنني في سجن، بعد أن كنت حرا طليقا أستنشق الهواء النقي بملء صدري، وتداعبني نسمات الفضاء الأخضر، وأنعم بشمس الضحى وشمس الغروب وهي تتخلل بخيوطها الذهبية أغصان الشجر وجذوع القصب. ومما زاد في الطين بلة أننا ابتلينا بجار سيئ الأخلاق سليط اللسان، والذي كان يسكن منزلا يقع تحت منزلنا، فكنت كلما جريت أو لعبت مع إخوتي، يأخذ عصا غليظة ويضرب بها سقف بيته. فأشعر كأن الأرض تزلزل من تحت قدمي. وعندما بلغ الصبر مداه ولم يعد أبي يتحمل أذاه، اضطر إلى بيع المنزل المشؤوم. بيد أنه في هذه المرة لم يشتر لنا منزلا آخر، وإنما دفع المال إلى عمي ليستثمراه معا في مشروع تجاري. وكان هذا الحدث بداية أحداث جرعتنا الآلام غصصا. وقديما قال الشاعر:

نوائب الدهر أنواع منوعة ❖ وللزمان مسرات وأحزان[1]

---

1 البيت للشاعر أبي البقاء الرندي الأندلسي، ذكره في مرثيته المشهورة والتي مطلعها:
لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

ثم اكترى لنا أبي غرفتين في منزل بدرب علال عزيمان الكائن بحي الترنكات. ومع مرور الأيام، ازدادت حالتنا المادية سوءا، خاصة بعدما باع أبي دكانه بسبب إفلاسه في تجارة الجلود.

مكثنا في هذا الحي بضع سنوات، ولجت خلالها باب المدرسة وبدأت أتعلم القراءة والكتابة، وأبدلنا الله جار السوء بجيران أحسنوا معاملتنا وعشرتنا، كما لم يدخروا وسعا في اصطناع المعروف لنا، مع أنهم لم يكونوا من الموسرين، لكننا لم نحرم منهم جهد المقل. ومن بينهم جارنا الكريم محمد بن يخلف وأمه رحمة رحمهما الله، فقد كانا خير من شدا أزرنا وهدآ روعنا في الليالي الحالكات. وقضيت مع أبناء محمد هذا وأبناء آخرين من جيران الحي أياما سعيدة مليئة بمغامرات الطفولة البريئة.

وكان أبي في عطلة الصيف يأخذ بيدي ويد أخي، ويذهب بنا إلى كتاب الحي حيث نحفظ ما تيسر من القرآن.

ثم إنني مازلت أتذكر ذلك اليوم الكئيب الذي غادرنا فيه هذا الحي. وأنا انظر إلى وجوه حزينة وعيون ملأى بالدموع، فقد شق على جيراننا فراقنا لهم ورحيلنا عنهم.

إن انتقالنا من درب علال عزيمان بحي الترنكات، إلى درب العاقل بحي العيون. كان إيذانا بفجر جديد في حياتي، ذلك الفجر الذي حمل في طياته أحداثا ووقائع ذات أهمية قصوى وأثر بالغ في كياني، وأهمها حدثان أساسيان:

أما الحدث **الأول**، فهو ارتباطي وأنا في سن الثامنة بزاوية الحي، وهي زاوية يمارس أتباعها الطريقة العيساوية التي تنسب للشيخ محمد بن عيسى المتصوف المكناسي.

وأما **الثاني**، فهو تعرفي إلى الأستاذ العلامة محمد أبي خبزة الحسنى بارك الله في عمره. ويفصل الحدثين مدة زمنية قدرها سبع سنوات.

كان فؤاد أمي مسرحا للهموم والهواجس. بيد أن هم أولادها استبد بها حتى غدا فؤادها فارغا إلا منه. وأخشى ما كانت تخشاه، أن يصاب أبناؤها بأذى

او تنحرف أخلاقهم، خاصة وأن معظم سكان هذا الحي العريق من القرويين الذين توافدوا على المدينة بعيد الاستقلال. ومعلوم حسب ما يؤكده علماء الاجتماع المتخصصون في الهجرة القروية، أن أبناء القرى النازحين إلى المدن، غالبا ما يكون اندماجهم في المجتمع المدني مصاحبا بنوع من الاضطراب وعدم التوازن. ويرجع هذا الأمر إلى عوامل متعددة، على رأسها العامل الاقتصادي حيث إن الأب المهاجر لم يغادر قريته إلا تحت وطاة الفقر، أو طمعا في الغنى. ومن ثم فإنه يظل نهاره متنقلا في أرجاء المدينة باحثا عن العمل. وقد يمكث عاطلا عنه مدة ليست بالقصيرة، مما قد يدفعه إلى العمل الإجرامي مثل السرقة. ومن هنا فإن أبناء هذه الأسر غالبا ما يحرمون التربية والتنشئة الحسنة، بسبب جهل الأبوين وانشغالهما عن ذلك بالبحث عن القوت.

2- مريد الطريقة العيساوية

ظلت أمي تفكر طويلا في أمر هذه البيئة الاجتماعية الموبوءة، وفي طريقة تجعلنا في مامن من انعكاساتها السلبية، فلم تجد أحسن ملجا وأمنع حصنا من الزاوية العيساوية، التي تقع في درب مجاور لدربنا. والحقيقة أن أمي في هذه الفترة التاريخية، كانت تعتقد مثل عامة المجتمع التطواني والمغربي آنذاك، ولاسيما أفراد الطبقة الفقيرة، تأثير الزوايا والأضرحة في نفوس العباد، وفي إمكانية دفع الضر عنهم وجلب الخير لهم، خلافا لما كان عليه أبي من التمسك بالعقيدة السليمة والبعد عن الخرافات[2].

وهكذا كانت أمي تتردد على هذه الزاوية، وتبث شكواها إلى بعض الموتى المدفونين هناك مثل: "سيدي الفاطمي"، و"للا المعمورة" و"للا العربية". وذات يوم طلبت منها خدوج؛ "المقدمة" المكلفة بشوون تلك الموتى، أي بالإشراف على

2- ولقد رجعت امي عن هذه العقيدة المرتبطة بالأضرحة والزوايا، وتابت الى الله بعد ادائها رحمها الله لفريضة الحج.

قبورهم، وإخبار الزائرين بكراماتهم، وقدرتهم على شفاء المرضى، وقضاء حوائج المحتاجين والملهوفين!!؟ طلبت منها أن تضمني وأخي عبد الوهاب إلى جماعة الفقراء والمريدين المنتمين إلى هذه الزاوية، فاستجابت أمي لهذا الطلب وأخذت بأيدينا وسلمتنا إلى "المقدم"؛ وهو المشرف على هذه الجماعة، فأجلسنا على ركبتيه، وتفل في كفيه ومسح بهما على رؤوسنا، وهو يردد بعض الأدعية ويتمتم بكلمات غير واضحة، وذلك بحضرة الفقراء. وهكذا انتظمت أنا وأخي في سلك الطريقة العيساوية الشاذلية بزاوية حي العيون، فرع الزاوية الأصلية الكائنة بمدينة مكناس، حيث يرقد جثمان الشيخ "الكامل" محمد بن عيسى، الذي تنسب إليه الطريقة المذكورة.

ومنذ ذلك اليوم أصبحنا من "خدام" الزاوية، ومن مريديها الذين يكنون لأهل قبورها ولمؤسسها، كل احترام وإخلاص ومحبة. وكان الورد الرسمي بالنسبة للمريدين والفقراء هو قراءة "حزب سبحان الدائم"، كل يوم بعد صلاة المغرب بطريقة جماعية. ثم يتلو ذلك إنشاد بعض الأذكار والمدائح الصوفية حتى صلاة العشاء. ولم تكد تمضي سنة واحدة، حتى حفظت الحزب عن ظهر قلب وكذا باقي الأذكار والمدائح. ولكي أواظب على الحضور كل يوم، كانت أمي تخيفني بـ"للا العربية" قائلة: إذا تغيبت عن حضور جلسة الذكر، فإن هذه "الولية" ستباغتك عندما تكون نائما وستفزعك فزعا شديدا.. وكثيرا ما كانت تتراءى لي بعض الأشباح المخيفة أثناء النوم، مما كان يزيدني تعلقا بالزاوية وأمواتها وأحيائها. ومع مرور الشهور والسنوات، ازددت حبا للزاوية بحيث صارت أحلى أوقاتي، تلك التي كنت أقضيها جالسا في ركن من أركانها أو متفيئا ظلال شجرتي الياسمين الموجودتين في فنائها، حيث يحلو لي أن استمع إلى أحد الفقراء وهو يحدثني عن كرامات الأولياء، وأصحاب الأضرحة المشهورة في المغرب، وكيف انهم يهبون لنجدة من يستغيث بهم من المريدين المخلصين!!

وذات يوم قال لي أحد الفقراء: ،بينما أنا جالس ذات يوم وحدي في الزاوية، إذا بي أرى امرأة تقترب مني قائلة: "أين قبر للاالعربية؟" فأشرت بسبابتي إليه،

فقصدته واختفت. ثم قمت أبحث عنها وأنا أرتعش من شدة الخوف، فلم أعثر لها على أثر.!! وقال لي: «إن للا العربية روحانية، حاضرة وغائبة.!!!؟.

وعلى رأس كل سنة هجرية كان الفقراء يحتفلون ب"الليلة الكبيرة"، حيث يقومون بذبح عجل في الصباح الباكر. ثم بعد سلخه يقطعونه أجزاء وقطعا، فيبيعون بعضها داخل الزاوية على طريقة المزاد العلني؛ "الدلالة"، ويتسابق المؤمنون ببركة الزاوية على شراء نصيبهم من هذا اللحم.

وفي المساء تتوافد وفود الزوايا الأخرى مثل الزاوية التيجانية والزاوية الدرقاوية والزاوية القادرية... لحضور الحفل. كما يؤم الزاوية جمع غفير من "المحبين"رجالا ونساء، فيشربون الشاي ثم يتناولون وجبة العشاء. ويتلو ذلك، الاستماع إلى الأشعار الصوفية. وحالما يكون السماع قد أثر تأثيره في نفوس الفقراء، يشرعون في التواجد فتشتاق أنفسهم إلى "الرقص"، فيأذن لهم الشيخ أو رئيس الحضرة، فيتسابقون إلى فناء الزاوية حيث يصطفون في صف واحد أو صفين، ويرقصون على إيقاع دقات الطبول، والدفوف، وأصوات المزامير، إلى ما بعد صلاة الفجر.

كما يخصص المشرفون على الزاوية يوما يستقبلون فيه زوارا لا تميل أنفسهم إلى "الرقص"، وإنما تطرب لسماع "همزية" البوصيري، وقصيدة "أنا سيدي عندي طبيب" لسيدي محمد بن علي؛ دفين تازروت بإقليم تطوان. وهكذا تنشد على أسماعهم مقاطع من الهمزية، ممزوجة بألحان بعض الآلات الموسيقية مثل الرباب والكمنجة!![3]، وما زلت أتذكر بعض الأشخاص المعروفين من أهل تطوان، والمولعين بالحضور في هذه المناسبة الصوفية؛ مثل السيد أحمد المرون، والسيد الحبيب الخراز، وأفراد من عائلة المصطفى، والسيد المريبطو الذي كان يعزف على الرباب، وغيرهم من الذين كانوا، رحمهم الله وغفر لنا ولهم، يتلذذون

3- إن استعمال الآلات الموسيقية في الذكر الصوفي خاصية يتميز بها أصحاب الطريقة الحراقية نسبة إلى الشيخ محمد الحراق دفين تطوان.

بالاستماع إلى هذه الأذكار الصوفية وتطرب نفوسهم، وتتمايل رؤوسهم مع الألحان الموسيقية وهم يشربون الشاي المنعنع الممزوج بماء الزهر!! مع تناول بعض الحلويات التقليدية، ذات الطابع الأندلسي.

ومما لاشك فيه أن هذا المناخ المفعم بالسعادة الروحية، الناتجة عن ممارسة الذكر الصوفي، والاحتكاك بالفقراء كان له اثر عميق في كياني. كما أن الشحنة الروحية لمعاني الأذكار الصوفية تكون قد لامست أعماق باطني، وأوقدت محبة الصوفية في قلبي، ولما أصل بعد سن البلوغ، مما سيكون أحد العوامل الأساسية وغير المباشرة في اقتحام التجربة الصوفية لاحقا بمدينة باريس.

بيد أن هذه الطريقة العيساوية لم تكن تخلو من بعض الممارسات الغريبة مثل لعب بعض الفقراء بالنار اثناء "الرقص الصوفي"، أو شربهم للماء الحار، أو اكلهم لحم كبش حي، يلقى بين أيديهم، فيفترسونه وهم يرقصون ويصيحون ونغمات المزامير ودقات الطبول تقرع آذانهم، فتقوي شوقهم إلى مزيد من الافتراس ومص دم الحيوان المسكين!!

3- الدراسة الثانوية والجامعية

لم أزل مواظبا على حضور جلسة الذكر اليومية وقراءة الحزب وإنشاد الأذكار والرقص مع الفقراء والمريدين، إلى أن بلغت من العمر خمس عشرة سنة، حيث غادرت الزاوية بمحض إرادتي. والسبب في هذه القطيعة المفاجئة أن أحد أصدقاء الطفولة الأعزاء وهو الأمين بوخبزة[4]، اقترح علي ذات يوم حضور جلسة علم وفقه، يقيمها عمه الأستاذ العلامة محمد بوخبزة في مقصورة مسجد العيون حيث كان خطيبا.

لقد كانت سنة 1389هـ؛ 1970م سنة حاسمة في حياتي، وبداية عهد جديد يتسم بحب العلم والمعرفة، لم تلبث أن ظهرت آثاره في دراستي بثانوية القاضي عياض بتطوان.

4- يعمل الآن مدرسا بكلية الآداب بتطوان كما ينتمي إلى أسرة البرلمانيين.

كان عدد الحاضرين في الجلسة العلمية يقارب العشرة، وقد جلسوا على الحصير يستمعون إلى دروس السيرة والتفسير والنحو والبلاغة. وبفضل شخصية الفقيه المرحة والانبساطية، لم تكن هذه الدروس مملة، بل كان إقبالنا عليها شديدا ورغبتنا في التحصيل قوية. وكان أستاذنا جزاه الله عنا خيرا ومد في عمره، كثيرا ما يدعونا إلى بيته، ويقدم إلينا الشاي والحلويات، كما يتحفنا بالنوادر الأدبية والتاريخية، وأحيانا يدخلنا مكتبته القيمة، ويعيرنا الكتب التي كنا نرغب في مطالعتها. لقد غرس فينا حب القراءة والبحث وعلمنا آداب المناقشة والحوار، كما رغبنا في الدعوة الإسلامية، وحثنا على قراءة كتب الدعاة من القدامى والمحدثين، من أمثال تقي الدين بن تيمية، وحسن البنا، وأبي الأعلى المودودي رحمهم الله.

وبما أنه كان يميل إلى المذهب الظاهري في كثير من المواقف والأحكام الفقهية، لم يكن يخفي إعجابه بشخصية ابن حزم، مما دفعني إلى الاهتمام بهذا العالم الموسوعي الفذ، فقرأت بعض مؤلفاته التي أسرني فيها كلامه المنطقي والفلسفي، ومنها صرت أبحث في الكتابات الفلسفية عند المسلمين، فقرأت لأبي علي بن سينا، ولأبي نصر الفارابي، ولأبي حامد الغزالي، ولأبي الوليد بن رشد، ولم أبلغ بعد سن العشرين.

وسرعان ما بدأت بذور جلسات أستاذنا الدينية تثمر، حيث تجلى أول الغيث في تأسيس مجلة "لسان الطالب" بثانوية القاضي عياض، والتي ساهمت فيها بمقال حول "مشكلة الملحدين"، كما ساهم صديقي الأمين بوخبزة بمقال تحت عنوان: "الماركسية تحارب الدين". وقمنا بتوزيع بعض أعداد المجلة على ثانويات المدينة. غير أننا فوجئنا بعد بضعة أيام، عندما ذكرت جريدة "البيان" أسماءنا قائلة بأن الإخوان المسلمين بدأوا يفرخون... في ثانوية بمدينة تطوان !! ولم يكن هذا التهديد ليثنينا عن عزمنا، بل كنا نستغل كل الفرص لنوضح مبادئ الإسلام

لتلاميذ المؤسسة، ونحذرهم من الوقوع في حبائل "المتمركسين"، المعجبين بتعاليم ماركس ولينين، والذين كانوا يحلمون بثورة شي غيفارا في الوطن العربي.

ثم إني شغفت في هذه السنوات بموضوع الجمال، فكنت اكثر من التامل في الأشياء الجميلة سواء تعلق الأمر بالانسان، أو الحيوان، أو النبات او الجماد مثل الجبال والوديان، مما دفعني إلى دراسة موضوع الجمال من خلال الشعر والفلسفة. ثم نظمت أبياتا في الغزل، لكن سرعان ما تركت الشعر والتجات إلى الرسم، غير أني أعرضت عن كل ذلك لولوعي القوي بالفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية. ولما حصلت على شهادة الباكلوريا في الآداب العصرية، وانتقلت إلى مدينة فاس لمتابعة الدراسة الجامعية سنة 1975م، كان من البديهي أن أختار شعبة الفلسفة. فكنت احضر الدروس والمحاضرات بشغف واهتمام بالرغم من أن بعض الأساتذة المتمركسين، كانوا يمارسون نوعا من الإرهاب الفكري من خلال دروسهم وكتاباتهم. وأذكر أن أحدهم، ولا داعي لذكر اسمه، فاجأ طلبته قائلا، إني نبئت بأن مجموعة من الطلبة المسلمين بدأت تفرخ في الوسط الجامعي، وإني لها بالمرصاد!!. وقد كان لكلامه هذا وقع سيئ في نفوس الطلبة الغيورين على دينهم. بل كان بعضهم يخفي تدينه عن زملائه المتمركسين اتقاء شرهم. وقد كنت لهذه الأسباب أكثر من الاطلاع على كتابات الفكر اليساري والفلسفات المادية. وذات يوم اشتريت كتاب **"مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط"** للدكتور طيب تيزيني المتمركس، ولما فرغت من قراءته، واطلعت على ضحالة افكاره، والتي تجلت في محاولة إسقاط المنهج المادي الجدلي على كتابات الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد الفلسفية، فكرت في إنجاز مقال نقدي حول الكتاب المذكور، فحررته ونشرته في جريدة النور، التي تصدر بمدينة تطوان تحت عنوان، **"قراءة نقدية في كتاب مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط"**.

اتاحت لي الدراسة الجامعية بفاس فرصة الاطلاع على التيارات الثقافية والسياسية، والاستفادة من المناقشات مع الطلبة من مختلف الاتجاهات والتخصصات الأدبية والفكرية. وعندما انتقلت إلى السنة الدراسية الثالثة اخترت تخصص علم الاجتماع، وبدأت اهتم بالدراسات الاجتماعية الأمر الذي شجعني لكي أقوم ببحث اجتماعي ميداني، متعلق بالعمال المغاربة المهاجرين بمدينة برشلونة في إسبانيا، وذلك في إطار مادة البحث المقررة في سنة الإجازة. أقمت في هذه المدينة سبعة عشر يوما، كنت خلالها أجري مقابلات مع عينة من أولئك العمال الذين كانوا يعانون الغربة والأزمات النفسية والاجتماعية والمادية. وبالرغم من أن فرص العمل كانت متوفرة لكل الخريجين الموجزين، فإنني آثرت المضي قدما في الدراسة والبحث، خاصة بعد أن يسر الله لي منحة من وزارة التربية الوطنية لمتابعة الدراسة العليا بفرنسا.

4- متابعة الدراسة الجامعية بفرنسا

ومع بداية السنة الدراسية (1979-1980م) غادرت مطار طنجة متجها نحو باريس طلبا للعلم والمعرفة.

ثم قصدت جامعة السوربون، وولجت مكتب تسجيل الطلبة الجدد، حيث تم قبولي في شعبة علم الاجتماع، تخصص الأنتربولوجيا الاجتماعية والثقافية. وبعد سنة من البحث والدراسة، أحرزت على دبلوم الدراسات العليا المعمقة في موضوع، **"دراسة حول الوضعية القانونية للعمال المغاربة المهاجرين بفرنسا"**.

ومما أثار انتباهي فور وصولي إلى باريس، اهتمام كثير من الكتاب الفرنسيين بالإسلام وقضايا المسلمين السياسية والاجتماعية، خاصة بعد اندلاع الثورة الإيرانية التي وصلت أصداؤها إلى أسماع كل المواطنين، كما تسابقت الصحف إلى نشر أخبارها، ووصف أحداثها ووقائعها. وقد دفع هذا الحدث التاريخي كثيرا من المعاهد والمؤسسات الثقافية، وكذا المتخصصين في موضوع الإسلام

وشؤون المسلمين، إلى مزيد من البحث في هذا الموضوع، فلم تمض سنة واحدة حتى اضحت واجهات المكتبات الباريسية مليئة بالمؤلفات والدراسات حول الإسلام دينا وثقافة وسياسة. كما لاحظت فيما بعد إقبال كثير من الطلبة الفرنسيين على شعبة الدراسات الإسلامية في جامعة السوربون.

ومن خلال مذاكرتي مع بعض أساتذة الجامعة وبعض الطلبة، ادركت أن الإنسان الغربي، انطلاقا من أحداث الثورة الإيرانية، ومن وقائع الصحوة الإسلامية عموما، بدأ يشك في معلوماته عن الإسلام والمسلمين، وانه قد آن الأوان لمراجعة بعض مفاهيم ومعطيات الاستشراق حول هذا الدين، وأن العلمانية التي شملت المجتمعات الغربية ليس من السهل تطبيقها في المجتمعات الإسلامية، وأن مقولة عالمية الثقافة الغربية بدت نسبية.

وذات صباح ركبت قطار المترو قاصدا معهد الدراسات العليا الشرقية لكي احضر درس الأستاذ ميشال شولدفيتسك حول التصوف الإسلامي. ولما دخلت قاعة الدرس وجدتها غاصة بالطلبة والباحثين المغرمين بالفكر الصوفي. عندما اخذت مقعدي كان الأستاذ على وشك الانتهاء من مقدمة تتعلق بكتاب عوارف المعارف للسهروردي المتصوف، والحاضرون ينصتون إليه في خشوع كأن على رؤوسهم الطير. ثم شرع في قراءة نص طويل من الكتاب المذكور، واتبعه بترجمة فورية. ولما انتهى من الترجمة طلب من امرأة شابة، كانت جالسة بالقرب منه أن تقوم بتصحيح ما قد يكون قد ارتكبه من أخطاء أثناء القيام بترجمته السريعة للنص الصوفي. فلبت طلبه وقومت بعض التعابير الواردة في الترجمة. ولقد علمت فيما بعد، أن السيدة كانت مبرزة في اللغة العربية، وانها ابنة الأستاذ المذكور الذي أعجبت بتواضعه ونزاهته العلمية. وبعد خروجي من قاعة الدرس اخبرني احد الطلبة أن الأستاذ يعمل مديرا لإحدى دور النشر الكبرى في فرنسا، كما بدأ يشتغل منذ دخوله في الإسلام، بالكتابة عن المتصوفة المسلمين، خاصة محيي الدين بن عربي. ولما اطلعت على بعض تاليفه لمست من خلالها إعجابه

الشديد بنظرية وحدة الوجود الصوفية. وسمعته مرة يمدح ابن عربي ويثني على كتابه "الفتوحات المكية"، الذي اعتبره أعظم كتاب في الفكر الصوفي على الإطلاق، كما اكد بانه من المستحيل نقل بعض فصول هذا الكتاب إلى لغة اخرى، لغزارة المعاني وعمقها، ولأن لغة الذوق إذا بلغت درجة معينة من العمق والتجريد، فإنها تستعصي على الترجمة.

لم يكن الأستاذ الباحث ميشال شولديفيسك وحيدا في هذا المجال، بل هناك عشرات من الباحثين والأساتذة الذين يهتمون بالموضوع نفسه. ويبدو أن موضوع التصوف قد تبوأ مكانة لا بأس بها في الجامعات، والمعاهد، والمؤسسات والجمعيات الثقافية التي تهتم بدراسة الحضارات الشرقية. كما أن دخول الفرنسيين في الإسلام غالبا ما يتم من باب التصوف. وهذا يسري حسب اطلاعي علي معظم الغربيين الذين اختاروا الإسلام دينا جديدا، ذلك لأنهم يلتجئون إلى الحياة الصوفية فارين من لهيب الحياة المادية. ولا يستغرب المرء عندما يسمع بوجود فرنسيين منتسبين إلى زاوية أو طريقة صوفية معينة. ولقد التقيت بمجموعة منهم ينتسبون إلى شيخ يعيش في دمشق، حيث يقومون بزيارته عندما يشتاقون إليه، كما التقيت بآخرين لهم علاقة قوية بالزاوية البودشيشية ببركان.

وكما مال كثير من الفرنسيين إلى التصوف الإسلامي، بحثا عن السكينة وهروبا من جحيم الحياة المادية المعقدة، اختار آخرون عقائد الهند ودياناتها خاصة اليوغا والبوذية، فاسسوا نوادي ومقرات لمزاولة نشاطهم الديني والروحي. ولقد رأيت مجموعة من اتباع هذه العقائد، وقد حلقوا رؤوسهم ولبسوا ثيابا صفراء طويلة، وهم يتجولون في شوارع باريس، مرتلين ومرددين لبعض العبارات، مثل هاري كريشنا هاري... وعبارات أخرى لا أذكرها. وغني عن البيان، ان الحياة في العواصم والمدن الكبرى الغربية، لا تخلو من هذه الظواهر الفكرية والاجتماعية الشاذة، التي تعبر عن التناقضات الحادة المميزة لطبيعة المجتمعات الغربية المعاصرة.

وإذا كان هؤلاء الفرنسيون قد وجدوا الخلاص في الانتساب إلى الطرق الصوفية، أو في ممارسة البوذية وغيرها من العقائد والديانات الأسيوية، فإن البعض الآخر قد اختار أقرب السبل وأسرعها للتخلص من عذاب الحياة المادية وهو سبيل الانتحار. وأذكر أني قرأت مرة في إحدى صفحات جريدة "لوموند" الصادرة في باريس، مقالا عن الانتحار أشار فيه كاتبه إلى أن محاولات الانتحار في فرنسا بلغ عددها ما يقرب مائة ألف محاولة سنويا، تكون نسبة الموت فيها ما لا يقل عن عشرة في المائة!! ولقد أتى علي زمن في منتصف الثمانينيات كنت فيه مولعا بمطالعة ما استجد في موضوع الانتحار. وذات يوم بينما كنت أقرأ عناوين الكتب التي لم يزد على صدورها أكثر من أسبوعين، وذلك في جناح خاص بالمركز الثقافي الشهير والمعروف بمركز "بوبورغ" أو "جورج بومبيدو"، إذا بعيني تقع على كتاب عنوانه "الانتحار 260 طريقة للاستعمال"، أخذت الكتاب توا، وشرعت في قراءته بلهفة قوية، وإذا بي اكتشف العجب العجاب فيما يدور في عالم الانتحار الرهيب. **أولا**: إن الكتاب عبارة عن دليل ميسر يسهل للإنسان القادم على الانتحار تنفيذ ما عزم على القيام به!! **ثانيا**: إن مؤلف الكتاب ينتمي إلى إحدى الجمعيات المنتشرة في عواصم أوربا، والتي تهدف إلى التعريف بالانتحار، والاستماع إلى شكاوى الذين يئسوا من الحياة، وتذليل السبل لمن شاء منهم أن يضع حدا لحياته!!

وعلمت فيما بعد أن لهذه الجمعيات مقرات ومكاتب، يؤمها هؤلاء اليائسون، عندما يضيق عليهم الفضاء المادي والروحي، فيسألون عن الطرق والوسائل غير المؤلمة لإزهاق أرواحهم، فيرشدهم العاملون في تلك المكاتب إلى أيسر طرق الانتحار !!؟. وبعد مرور ما يقرب من شهرين على صدور الكتاب المذكور، استمعت عبر إذاعة "فرنسا الثقافية"، إلى حوار ساخن بين رجل سياسي، وآخر قانوني، يدين فيه الأول ذلك الكتاب وينتقده بشدة، مشيرا إلى أن عشرات المنتحرين ممن انتحروا في الأسابيع التي تلت ظهور الكتاب، كانوا قد اطلعوا

عليه، بل وعثر في بيوتهم على نسخة منه، ولذا يجب على المسؤولين إدانته وسحب جميع نسخه من المكتبات. غير أن رجل القانون انتصر عليه محتجا، ومذكرا إياه بالمبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية، وهي المساواة والأخوة والحرية، وانه استنادا إلى المبدأ الأخير، فإن المواطن الفرنسي حر في حياته الشخصية، وليس لأحد الحق في أن يمنعه من الانتحار، إذا ما رغب في وضع حد لحياته، بل من الواجب على المسؤولين مساعدته والأخذ بيده لتحقيق أمنيته!!!؟

ولقد كنت من ناحية أخرى حريصا على حضور دروس ومحاضرات بعض كبار الأساتذة المتخصصين في الأنتربولوجيا الاجتماعية والثقافية؛ وعلى رأسهم الأستاذ كلود ليفي ستراوس الذي بلور الأنتربولوجيا البنيوية، كما بلور نظريات كثيرة في ميدان الفلسفة البنيوية عموما. كما كنت استمع الى دروس الأستاذ جورج بلانديه المتخصص في الأنتربولوجيا السياسية، وكذا الى دروس ميشيل فوكو المتعلقة بفلسفة المعرفة، ومحاضرات الأنتربولوجي المستشرق جاك بيرك، والأستاذ الأنتربولوجي أندريه آدم. ولقد كنت معجبا بهؤلاء الأساتذة الكبار ومنكبا على قراءة وفهم ما كتبوه من كتب ومقالات، كما كنت منبهرا بالأساليب والطرق والمناهج العلمية التي يوظفونها في تحليل نظرياتهم وأبحاثهم.

بيد أن رياح التصوف هبت على حين غرة، فتغيرت الوجهة، ومال القلب إلى نسمات المعرفة الروحية.



الفصل الثاني :

العوامل الممهدة للخلوة الصوفية

1- الحرية والإباحية في العاصمة الفرنسية

2- ربط علاقات الصداقة بفرنسيين متصوفة

3- معاناة نفسية

1- الحرية والإباحية في العاصمة الفرنسية

لما حللت بباريس في فاتح محرم الحرام سنة 1401هـ، موافق نوفمبر 1979 وبدأت أحتك بأفراد هذا المجتمع الجديد، كانت تنتابني أحيانا حالة نفسية رهيبة، مصدرها الخوف من الذوبان وفقدان الهوية. غير أن اهتمامي بالدراسة والتحصيل كان يخفف من وطأتها، كما أن العلاقات الأولى التي نسجتها مع بعض الطلبة المغاربة، جعلني أشعر بنوع من الدفء النفسي. والحقيقة أن الواقع النفسي والشعوري للطالب العربي المسلم في البلدان الأوربية، قلما يسلم من الهزات العنيفة، لأن هذا الواقع يشكل مسرحا للصراع بين ثقافتين متعارضتين أشد التعارض. ولقد أثبتت الدراسات النفسية المتخصصة في مجال الهجرات البشرية من آسيا وإفريقيا إلى أوربا، أن المهاجرين إلى هذه القارة قلما يجتازون عقبة التكيف بدون مشاكل، هذا إذا افترضنا وجود تكيف حقيقي وكامل، لأن هذا الأخير لا يتحقق في المجتمعات الغربية بالوجه الكامل والتام، إلا إذا تخلى المهاجر كليا عن ثقافته الأصلية. هذا هو منطق الثقافة الغربية، إنه منطق الاستعلاء والقوة، ولم يحدثنا تاريخ الحضارات عن منطق مماثل. بل إن التعايش الثقافي كان سمة أساسية من سمات الحضارات الانسانية القديمة. وما سياسة العولمة التي تتزعمها وتمارسها الولايات المتحدة الأمريكية، إلا دليل من بين عشرات الأدلة المعبرة عن ذلك المنطق السخيف المنافي لمفهوم الحضارة الإنسانية.

ولعل مظهر الحرية الفكرية و العقدية و الإباحية الجنسية، من بين المظاهر العنيفة التي تواجه المهاجر المسلم وتتحداه، بل قد تحدث له مع الزمن، شروخا خطيرة في كيانه الثقافي والعقدي. إن هؤلاء المهاجرين المسلمين الذين يقيمون في مجتمعات تختلف ثقافيا، واجتماعيا، ودينيا عن مجتمعاتهم الأصلية، معرضون لا محالة لهزات وأزمات نفسية خطيرة ورهيبة، خاصة إذا كانوا لا يرغبون في استبدال ثقافتهم التي نشأوا عليها، وتربوا في أحضانها بثقافة المجتمع الجديد. وبما ان مقولة "الإنسان ابن بيئته" لا ترحم، والسنن والقوانين الاجتماعية تتسم غالبا بصفتي القسر والحتمية، فإن هؤلاء المهاجرين يؤدون ثمن هجرتهم باهضا، حيث يتجلى ذلك في المعاناة الناجمة عن التصادم الثقافي والعقدي في مجتمع الهجرة، خاصة أن هذا المجتمع لا يقبل ثقافة وعقيدة المهاجرين المسلمين، بل يستعمل آليات الإكراه النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والقانونية، لدفعهم للتنكر لثقافتهم وعقيدتهم أو للانسلاخ عنهما، كما أن الثقافة الغربية، بحكم نزعتها المركزية، لا تعترف بالثقافة الإسلامية الشرقية، بل تصرح بكراهيتها وعدائها لها، وهذا أمر أبين من فلق الصبح، ويمكن ملاحظته من خلال الاطلاع على ما تنشره وسائل الإعلام، وما يكتبه المستشرقون وغيرهم من الكتاب الغربيين، حول قضايا الإسلام وثقافة المسلمين، وحياتهم الاجتماعية والسياسية. كل ذلك انطلاقا من "النزعة المركزية"، التي هي لسان حال الثقافة الغربية.

ثم إن الغربيين عموما يكرهون العرب والمسلمين، لأسباب تاريخية وعقدية يعرفها الخاص والعام. أما خرافة العلمانية أو الإلحاد، أو المادية الجدلية، أو الاشتراكية والشيوعية، أو ما شابه ذلك من المفاهيم الفلسفية، التي أفرزتها الثقافة الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فإنها لم تستأصل جذور العقيدة المسيحية المحرفة من نفوس الغربيين، ولم تمح المنطق الصليبي من ذاكرتهم. فالمسيحية الصليبية بشكل من الأشكال، ما زالت تؤثر في بواطنهم وبنيتهم اللاشعورية. والمنطق الصليبي لا ينفك حاضرا في سلوكهم، ومواقفهم

السياسية تجاه المسلمين والعالم الإسلامي، بل هو ألزم لهم من ظلهم. أما ما يتبجحون به من شعارات، ديمقراطية، حقوق الإنسان، الحوار الحضاري والديني، فكله تمويه وهراء. وما يقع الآن على أرض العراق، وأفغانستان، وفلسطين، من مجازر، وقتل، وهدم، وتشريد للأسر، وإبادة للقرى والمدن، وما يحاك ضد الإسلام عقيدة وثقافة، باسم "محاربة الإرهاب"، ليس إلا دليلا من بين مئات الأدلة على أن عقيدة القرون الوسطى المسيحية، ما زالت تسري في دماء الغربيين، وأن روح الصليبية تغذي إلى يوم الناس هذا، نفوس النصارى من الأوربيين والأمريكيين وغيرهم بالحقد والكراهية تجاه المسلمين.

هذه الحقائق الجوهرية يجهلها أو يتجاهلها المهاجر المسلم في بلاد المهجر، وهي السبب الرئيس في ما يعانيه من ظلم، وعنصرية، وتهميش، واستلاب، واغتراب، وضياع للهوية.

إن مناخ الحرية السائد في هذه البلدان له علاقة بماض تاريخي يرجع إلى حصيلة الصراع الذي كان قائما بين أصحاب الكنيسة، و أصحاب الفكر المادي والسياسي، والذي توج بانتصار الفريق الثاني، حيث شهدت البلدان الأوربية بزوغ العلمانية، و انتشار المذاهب المادية و الإلحادية. فالحرية في هذه الديار جاءت نتيجة تطور ثقافي وعقدي وسياسي معين، ونتيجة فلسفة خاصة اختارها أصحابها ونسجوا انطلاقا منها أنواعا من النظم و القوانين.

أما انبهار بعض الطلبة العرب وغيرهم من المهاجرين بهذه الحرية، فإنه لا يعبر إلا عن ضعف العقيدة الإسلامية لديهم، كما يعبر عن قوة المؤثرات واستعلاء الثقافة الأوربية ورفضها للثقافات الأخرى، وكأن لسان حالها يقول، إما أن تعتنق مذهبنا في الحياة، وإما ترحل عنا. ومما لا شك فيه أن مظاهر الخلاعة والإباحية الجنسية، والاختلاط الفاحش والعري، وما إلى ذلك من ألوان الحيوانية والبهيمية، بالإضافة إلى الإلحاد والاستهزاء بالديانات، والأخلاق السامية مثل الحياء والمروءة... كل ذلك كان له وقع سيئ في نفسي، الأمر الذي جعلني أمقت

هذه الحضارة، وأبحث في الدراسات التي اهتمت بنقدها وإبراز عيوبها، فقرأت في هذا الشان بعض مؤلفات **اوزوالد شبنجلر**، و**برنارد شو**، و**رونيه كينو** وغيرهم.

كان انطلاق الغرب نحو الاباحية المفرطة، ردة فعل على القيود المسيحية الكنسية المتزمتة التي تكبت النوازع الفطرية وتغلها عن الانطلاق. ولعلهم حسبوا ان هذا الانطلاق هو الحل الحقيقي لمشكلة الجنس الجامحة التي تزداد تعقدا كلما ازدادت المدنية الغربية (رقيا) على طريقتها المادية الخالصة.

ويصف الكاتب الأمريكي وليام ديورانت الحضارة الغربية فيقول، «إن ثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطيرة لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الايمان الديني، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقيتنا، اننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن...»[1].

وخلاصة القول؛ إن واقع الاستعلاء والهيمنة وإلغاء الآخر مما تتميز به الثقافة الغربية، بالإضافة إلى ما ذكرت من مظاهر التحرر والخلاعة والإباحية؛ هذه الأسباب شكلت أحد العوامل الرئيسة في ظهور ميلي إلى نوع من الانطوائية والهروب، الأمر الذي شجعني على الاهتمام بالتصوف، واللجوء إليه، واتخاذه حصنا وملجأ.

2- ربط علاقات الصداقة بفرنسيين متصوفة

شاء ربي وخالقي أن اتعرف إلى ثلاثة من الطلبة التونسيين؛ أحدهما يدرس الطب والآخران يدرسان الهندسة. وكانوا على صلة حميمة بأسرة فرنسية تدعى؛ روتي، حيث كانوا يزورون بيتهم كل يوم سبت بعد العصر. وذات يوم اقترحوا علي مصاحبتهم فاجبتهم لذلك.

كان حديثنا ونحن في القطار، يدور حول موضوع هذه الأسرة الفرنسية وما تتصف به من صفات التدين والمعرفة. وبعد ما يقرب من عشرين دقيقة، اشرفنا

1- سيد قطب، الاسلام ومشكلات الحضارة، ص. 135.

على مدينة صغيرة تدعى انطوني، وهي من المدن الكثيرة التي تنتشر حول العاصمة الفرنسية. وبما أن الوقت كان وقت صيف، فإن السيد يعقوب روتي قد استقبلنا في بستان منزله الجميل، وقدم إلينا اكوابا من المشروبات الطبيعية أعدتها زوجته.

ولقد كان إعجابي كبيرا وانا أستمع إلى حديث هذا الرجل في موضوع التصوف، حيث كان ينتقل من القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر، ثم ينحدر إلى القرنين السادس والسابع، متحدثا عن اقطاب الصوفية وأعلامهم، ومستشهدا بأفكارهم، وأشعارهم وخواطرهم، وما قاموا به من أدوار في إصلاح وتربية النفوس وتزكيتها، كل ذلك بلغة فرنسية رصينة على طريقة الأساتذة المتخصصين، وكنت، بين الفينة والأخرى، اتفرس وجوه أصدقائي التونسيين، فاجد عيونهم ترنو اليه بإعجاب كبير، ناهيك عن العبارات الأدبية والأخلاقية التي كان يستعملها معنا ومع عموم الزوار، مما تجعل القلوب تهوي إليه وإلى منزله.كما كان يقوم بخدمة زواره بنفسه و يكرمهم أيما إكرام. بعد أن أدينا صلاة العصر في قاعة فسيحة، بدأ الزوار يتوافدون على البيت، إلى أن قارب عددهم عشرين شخصا. وبعد بضع دقائق، غادروا تلك القاعة ثم رجعوا إليها، وقد لبس كل واحد منهم عباءة بيضاء، واستعملوا الطيب وجلسوا في شكل حلقة صوفية، ثم دخل الشيخ عبد الحميد روتي، والد السيد يعقوب، وهو رجل في سن الثمانين، وكان قد دخل في الإسلام في بداية الأربعينيات من القرن العشرين الميلادي. فلما جلس وحيانا، نظرت إلى القوم فإذا هم صامتون ينظرون إليه من طرف خفي.

وبعد قراءة الفاتحة، افتتح الشيخ حزبا من أحزاب أبي الحسن الشاذلي فتبعه الحاضرون، وقد أخذ كل واحد منهم كتيبا يقرا فيه، ثم تليت احزاب أخرى ودعوات. واستمر الحال إلى وقت أذان المغرب. وبعد الصلاة عاد القوم إلى وضعهم الحلقي، ثم جئ بأطباق مليئة بالزيتون، وأخرى بالخبز، وكذا باكواب من

الماء. ولاحظت ان الحاضرين كانوا اثناء الأكل، يتجاذبون أطراف الحديث بنوع من المودة الصادقة، وكأنهم أعضاء أسرة واحدة. بعد ذلك انصرفنا وودعنا السيد يعقوب روتي، وتواعدنا على اللقاء في السبت القادم.

وهكذا بعد ان توطدت العلاقة بيني وبين أسرة روتي، علمت أن السيد يعقوب وأباه قد كتبا باللغة الفرنسية كتبا لها علاقة بالتصوف، واخرى تعرف بالدين الإسلامي. وقد أهديا إلي نسخا منها. كما كنت أستعير من مكتبتهما كتبا في التصوف كلما قمت بزيارتهم.

لقد شكل هذا اللقاء منعطفا خطيرا في حياتي، كما كان له اثر بليغ في كياني، ومن ثم فإني أعتبره من العوامل الأساسية في ولوجي عالم التصوف والتجربة الصوفية. وكان ذلك سنة 1400 هـ موافق لسنة 1981م.

لم أعد أحفل كثيرا بمتابعة دروسي في علم الاجتماع بجامعة السوربون، وإنما الفيتني انتقل بين الكليات والمعاهد العليا، باحثا عن اساتذة الدراسات الإسلامية والشرقية، لعلي أجد من بينهم من يشفي غليلي بحديثه عن التصوف الإسلامي. كما كنت اخصص الساعات الطوال لقراءة كتب المتصوفة، وذلك في مكتبات الجامعات، وكذا في المكتبات العمومية مثل المكتبة الوطنية الشهيرة. وهكذا قرأت لأبي حامد الغزالي كتابه "**إحياء علوم الدين**"، ومجموعة من رسائله مثل، "**المنقذ من الضلال**"، و"**الأربعين في أصول الدين**"، و"**معارج النفس إلى مدارج القدس**"، و"**مشكاة الأنوار**"، و"**المضنون به على غير أهله**"، و"**القسطاس المستقيم**"، و"**إلجام العوام عن علم الكلام**"، و"**الدرة الفاخرة في علوم الآخرة**". كما قرأت كتاب "**قوت القلوب**" لأبي طالب المكي، و"**الرسالة**" لأبي القاسم القشيري، وأجزاء من كتاب "**الفتوحات المكية**" لمحي الدين بن عربي، وعشرات من رسائله، كما قرأت رسائل الحكيم الترمذي، وكتب شهاب الدين السهروردي. وقرأت كتاب "**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**" لأبي نعيم وكتابات ابن سبعين واقوال أبي منصور الحلاج، وأبي يزيد البسطامي والشبلي وابي القاسم الجنيد، ورسائل الحارث المحاسبي، كما قرأت عشرات الكتب عن التصوف باللغة الفرنسية.

لقد مكثت ما يقرب من سبع سنوات وأنا ألتهم كتب الصوفية وأحلق معهم بخيالي ورؤاي في عوالمهم اللامحدودة، وأنعم بطمأنينة نفسية عميقة. فكان هذا العالم الباطني الذي أسبح في أرجائه، بمثابة الحصن المنيع الذي حال دون تسرب سموم الثقافة المادية إلى كياني، بل كنت أتجول في شوارع العاصمة الفرنسية وأنا مشغول بالذكر او التفكر، أو المحاسبة النفسية. ولم يعد للصور الخليعة المعلقة على جدران محطات المترو، ولا لمظاهر الخلاعة المنتشرة هنا وهناك، ولا لمعاني الثقافة المادية، وجود في ذهني، أو رسم في مخيلتي. وكانت شخصية أبي حامد الغزالي أهم شخصية صوفية أثرت في نفسي، بحيث لم أكن أمل من قراءة كتبه، كما كنت مولعا بتحديق النظر باستمرار في رسائل ابن عربي الحاتمي، والغوص فيما تتضمنه من معاني وأفكار. وقرأت كثيرا من مؤلفات الشيخ عبد الواحد يحيى، رونيه كينو سابقا، المفكر والمتصوف الفرنسي. لقد كان لهذا الرجل باع كبير في ميدان التصوف العالمي، بحيث كتب عن التصوف الصيني والفارسي والهندي والإسلامي. وكان يتقن عدة لغات، فاقتنيت جل كتبه خاصة فيما يتعلق بالتصوف وبنقد الحضارة الغربية.

وعندما أنهيت رسالتي حول وضعية العمال المغاربة المهاجرين في باريس وضواحيها، وحصلت على شهادة دكتوراه السلك الثالث سنة 1984م، رجعت إلى بلادي راجيا من الله أن أجد مكانا بين أسرة التدريس في إحدى الجامعات المغربية، لكن بعد أسابيع من التنقل بين تلك الجامعات، رجعت إلى مدينة تطوان بخفي حنين راضيا بقضاء الله وقدره. ولكي لا أظل عاطلا، بدأت أطرق أبواب بعض الثانويات الخاصة، فانتهى بي المطاف إلى ثانوية ابن خلدون بمدينة طنجة، حيث قمت بالتدريس فيها بضعة أشهر. ثم ألم بي حنين الرجوع إلى الديار الفرنسية لمتابعة الدراسة والتحصيل، وذلك سنة 1985م.

قصدت جامعة السوربون من جديد، واخترت هذه المرة شعبة الفلسفة، وبدأت أبحث عن أستاذ مشرف، بعد أن حددت موضوعا للبحث والدراسة، وهو: "**الفكر**

الصوفي عند احمد بن عجيبة المغربي"، فطلبت مقابلة الدكتور **محمد اركون**، وعرضت عليه الموضوع، لكنه اشترط علي استعمال منهجية التحليل النفسي، واستخدام آليات وأدوات علم النفس في دراستي لهذه الشخصية الصوفية. فقلت له، إن موضوع التصوف لا يمكن إخضاعه لآليات العلوم الإنسانية الحديثة، كما أن التجارب الصوفية لا علاقة لها بالأمراض والعقد النفسية كما تدعون. وبعد أيام، عثرت على أستاذ آخر كان يدعى بيير تييه، فاقترحت عليه موضوعا آخر تحت عنوان: **"دراسة حول المعرفة و الأخلاق عند أبي حامد الغزالي"**، فقبل الإشراف وتم تسجيلي في الجامعة. وبعد ثلاث سنوات أنجزت الأطروحة وهيأت نسخا منها، وقدمتها للإدارة قصد المناقشة، بيد أنني سافرت إلى المغرب في نهاية الموسم الدراسي لسنة 1988م، وحصلت على منصب أستاذ مساعد في كلية أصول الدين بتطوان، فلم أرجع بعد ذلك إلى فرنسا وبقيت الأطروحة بدون مناقشة!!

وفي سنة 1999 حصلت على شهادة دكتوراه الدولة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي تطوان في موضوع: **"الاستغراب في المغرب الأقصى: قضاياه وأهدافه"** الأمر الذي زهدني في الرجوع إلى باريس لمناقشة الأطروحة المعلقة.

3- معاناة نفسية

بينما أنا جالس في غرفتي ذات صباح قد أطلقت العنان لخيالي، إذا بي أطل من نافذة على عالمي الجنة والنار: ينشرح صدري تارة وينقبض أخرى، ويهيم قلبي لحظات، ويطرب لانعكاس ألوان النعيم في مرآته، ثم يضيق ويتألم لورود ما يخيفه ويزعجه من صور العذاب وهول الجحيم، حتى غدا باطني مسرحا لصراع عنيف بين النعيم والجحيم، والشقاوة والسعادة والطمأنينة والحيرة. وما هي إلا دقائق معدودة حتى فوجئت بنداء ينبعث من صميم قلبي، وهاتف يهتف بي: إلى متى هذا النوم؟ إلى متى هذه الغفلة؟ ألا من يقظة توقظ عزمك، وتضيء ما ادلهم من ليل حالك، وتذيب حجارة القسوة الجاثمة فوق قلبك؟ أما آن لهذا القلب

ان يلين ويخشع؟ (الم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق)؟ ولهذه العين أن تبصر وتتبصر وتدمع؟ ما لهذا خلقت يا عبد الله؟ وما خلق الله شيئا عبثا او سدى، بل كل في فلك يسبحون وبكل لسان يسبحون، فاين لسانك؟ واين قلبك؟ واين قصدك؟ وما وجهتك؟.

هيهات هيهات، اتظن الأمر سهلا وتحسب الوجود عبثا كلا، فالأمر أعظم مما تتصور، والخطب اجل مما قد يخطر على بالك، والفضاء ضاق بما رحب، وعجلة الزمان أوشكت على التوقف، بعد ان أباد الأمم والقرون تعاقب الحركة والسكون، وليل نهارك قد جن عليك ولما تعاين نجومه، اقم قيامتك قبل قيامها، فهول القيامة اشد ما ينتظر، والساعة أدهى وأمر. وليوقفنك رب العزة بين يديه وليسالنك سؤال عزيز مقتدر، وقتئذ تبلغ القلوب الحناجر وتفترس الندامة الصدور، ويعض الظالم على يديه، ولات حين مناص.

يا عبد الله انت اكرم على الله من ان تسحرك الدنيا بظلها الزائل، او تعبث بك الشياطين وتزج بك في حماة الشهوات والضلالات، وإلهك ينتظر رجوعك وتوبتك ويفرح بذلك اكثر من فرح أم برجوع ولدها المفقود.

ومرت الأيام وأثر ذلك الهاتف يزداد توقدا، وصوت النداء الباطني يزداد قوة وحدة، فعزمت على الخروج عن العادات والمألوفات، والاقتداء بأرباب العزائم المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، ووطنت نفسي على ذلك، كيف لا والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تاتلق، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق.

فلما استقرت في باطني بوارق اليقظة، وانزعج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، أخذت في أهبة السفر إلى الله لا الوي على شيء، وعقدت عقدا جازما على المسير، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل.

.قال الشاعر[2]،

2- لم اعثر على اسمه.

فحـي على جنات عدن فإنهـا

منازلك الأولى وفيها المخيـم

ولكننا سبي العدو فهل تـــرى

نعود إلــى أوطاننـا ونسلـم

ثم أعقب حال اليقظة والانتباه، شعور عميق بالذل والانكسار، والخضوع والافتقار للرب سبحانه وتعالى، يقول رب العزة، **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾**[3].

فادركت تمام الإدراك، أن صلاحي وخلاصي، وهداي وسعادتي، بيده جل وعلا، وان هذا الخير وهذه اليقظة منه وحده، وان رحمته بي اقتضت تذكري له وسياقتي إليه. فالتجات إليه لجوء المضطر الذليل المستعطف، ،ووضعت خذي على عتبة العبودية ناظرا بقلبي إلى ربي ووليي نظر الذليل إلى العزيز الرحيم،. ثم بعد ذلك احسست بحياة الهمة والإرادة، تسري في كياني سريان الدم في شرايين الجسد، وإنها لهمة عالية وإرادة صادقة، والحياة الطيبة لا تنال إلا بذلك. قال العلامة الفقيه محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، ،لما كان في القلب قوتان قوة العقل والتمييز وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق، ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه.

وينبغي أن تعرف ان هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده،

3- سورة فاطر، آية 15.

فالإنسان حارث همام بالطبع، كما قال النبيﷺ: **«أصدق الأسماء، حارث وهمام»**. فالحارث الكاسب العامل، والهمام المريد. فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية متصورة لها، متميزة عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وترده تصورت الباطل وطلبته وأرادته ولابد»[4].

يا عبد الله، أول ما يلزمك معرفته الطريق الموصل إلى الله، طريق يبصرك بعيوبك، ويرفع حجاب نفسك ويحرق ظلمات الطبع، وكدورات النفس بأشعة البصيرة، حتى يقوم بقلبك شاهد من شواهد الآخرة، وتغدو كأنك تعاين بعض معالمها فتنجذب إليها بكليتك، ولن تظفر بذلك ما لم تعمل على تجديد التوبة وتصحيحها، وتسع جادا في القيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. وكن على يقين أنك مهما اجتهدت في هذا الأمر، وصدقت الله فيه، فستحظى بمحبة الرسول محمدﷺ، وذلك بتعظيمك لشخصه واتخاذه إماما ومعلما، وقد تستولي روحانيته على قلبك فتغدو مشكاة النبوة مصدرا وسراجا لسلوكك وآدابك، بل وعينا تنهل منها معارفك وخواطرك،ولا تعجبن لهذا، فالأمر أبين من فلق الصبح، إذ محبتك الصادقة لله ستفضي بك لا محالة إلى إتباع رسوله صلوات الله وسلامه عليه. أليس رب العزة يقول: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويوتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾**[5].

فطوبى لك يا عبد الله إن أنت بلغت هذه المنزلة، ولا تسل عما سينعم الله به عليك من العطايا والمنح، والتي أجلها محبة كلامه وقرآنه وفهم رسالته وخطابه، وكذلك الترقي في فهم معاني الأسماء الحسنى والصفات العلا، مما سيزيدك تقربا وانجذابا إلى الله، فيستولي التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والخشية على قلبك، وتصبح محبا ومحبوبا. قال رسول اللهﷺ، فيما يرويه عن رب العزة:

4- محمد بن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار ابن زيدون بيروت، ص. 31-32.

5- سورة الأعراف، 156-157.

.من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء احب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى احبه، فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سالني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء انا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وانا اكره مساءته.[6].

ومضت أسابيع بل شهور، وأنا على هذه الحال أشعر بانجذاب قوي نحو الحق سبحانه وتعالى، وصرت حريصا على أداء الصلوات في وقتها، وكما شرعت في الاجتهاد في نوافل الطاعات، وفي مطالعة كتب فقه العبادات بالرغم من صعوبة ظروف العيش والإقامة في بلاد الغربة. وتبين لي مع مرور الأيام بيان يقين أن الدنيا حقيرة قليلة الوفاء، كثيرة الجفاء، تحزن اكثر مما تسر، وتجرع سم العذاب اكثر مما تسقي حلو الشراب، وتذكرت قول الله تعالى، ﴿**اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾[7]، وقوله جل وعلا، ﴿**يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**﴾[8]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنه، .كن في الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل.[9]. وقوله ﷺ، .**مالي وللدنيا؟ ما انا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.**[10]، وقوله، .الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما.[11]. وروي أن الحسن البصري رضي الله عنه بعث برسالة إلى

6- رواه البخاري.
7- سورة الحديد، آية 20.
8- سورة لقمان، آية 32.
9- رواه البخاري.
10- حديث صحيح.
11- رواه الترمذي.

الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة، قائلا، «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يديك، الزهد في الدنيا، وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار. فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجدها أهلا أن تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلا أن تكرمها بهوان الدنيا فإن الدنيا، دار بلاء وموطن غفلة»[12].

فلما رأيت أن القرآن العظيم مملوء بالتزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها ودناءتها، وسرعة انقطاعها وفنائها وأنها «دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له»، حمدت الله على حالي وشكرته، إذ لم يبتلني بالغنى الذي يطغي، وإنما جعلني طالب علم، بعد أن جاء بي إلى ديار الغربة.

لم تكد تمضي سنة واحدة على عالم التصوف الفكري، من خلال الاحتكاك المتواصل بمجموعة "روتي"، والإكثار من قراءة كتب المتصوفة، والإطلاع على التجارب الصوفية لأقطابهم، حتى بدأت أفكر جديا في ممارسة تجربة صوفية عملية، وتراءت لي الخلوة -ولو مؤقتا- أحسن وسيلة ناجعة في درب التصوف العملي. لكن كيف أختلي بنفسي يا ترى وأنا مقيم في عاصمة لا مكان فيها للخلوة أو العزلة؟ بالإضافة إلى أنني كنت على صلة دائمة بالطلبة التونسيين الثلاثة وبطالبين أخوين مغربيين، ثم بدا لي أن أؤجل الخلوة إلى حين. لكنني اجتهدت في تربية النفس وتزكيتها، ومعلوم أن الصوفية يركزون على ضرورة معرفة النفس، ويعدون ذلك شرطا أساسيا في طريقهم لسببين، أولهما، أن دراسة النفس توقف الإنسان على غوائلها ورغباتها ومخالفاتها، وفي ذلك عون له على مقاومتها. والسبب الثاني، أن معرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله، والنفس عندهم هي عدو الإنسان الأكبر الذي يجب مجاهدته، كما أنها تتحالف مع الشيطان لإهلاك هذا الإنسان وسوقه إلى الكفر والمعصية.

12- ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص. 124.

أصبحت النفس موضوع تفكيري وتأملي، وصرت أبحث عن عالمها في بطون كتب الفلسفة وعلم النفس، بالإضافة إلى كتب التصوف. فتكونت لدي حصيلة لا بأس بها، لكنني كنت كل يوم أزداد اقتناعا بأنه لا يمكن لإنسان فهم نفسه حق الفهم دون امتلاك أداة الذوق، إذ أن أداة المعرفة غير كافية لكونها توقفك فقط على عتبة العالم النفسي. أما اجتياز العتبة ودخول المنزل فأمر متوقف على الذوق. وما أدراك ما الذوق.

وقد ذكر النبيﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فذكر الذوق والوجد وعلقهما بالإيمان. فقال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا»**[13]، أي أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب. قال محمد بن قيم الجوزية: «ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب إليهم في رضي ربهم تعالى؛ وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: «ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل».

لا شك أن طائفة أهل الرقائق الذين يحيون التجربة الروحية دون انقطاع، وذلك من خلال مجاهدة النفس وتزكيتها، يغدون ويروحون متفيئين ظلال مقامات روحية سامية، من زهد وورع، وأنس، ومحبة، وخوف، ورجاء، وصبر، وشكر، وتوكل، وحياء، وتواضع، وذكر، وتفكر، وتفويض، وسكينة، وطمانينة... إن هذه المعاني الشريفة المتأصلة في الكتاب والسنة، قد باشرت قلوبهم، وذاقوا طعمها الإيماني، وسرى الذوق في كيانهم، وهو ما يعبر عنه أحيانا باللذة الروحية

13- رواه مسلم.

العارمة. والذوق الإيماني من الموضوعات التي يستعصى وصفها على العقل، لأن جذورها عميقة في أرض الوجدان، أما كلام أهل الرقائق عنه فإنه لا يعدو أن يكون مجرد إشارات وتلويحات.

ومثل الذوق الإيماني في الاستعصاء على العقل، كمثل الانفعال. يقول الأديب الناقد إيليا الحاوي متحدثا عن طبيعة الانفعال الجمالي، «إن الانفعال هو في اصل كل تجربة جمالية، ونفهم بالانفعال تلك الحركة الشعورية التي تطغى على النفس وتسيطر على قواها، فترتهنُها لحتميتها وتولد فيها يقينا خاصا بها. وبكلمة موجزة، الانفعال هو ما تعانيه النفس معاناة ولا قبل لها بفهمه فهما، أو أن ما تفهمه منه ليس سوى أشلائه، والجزء الساقط الذي لا ينطوي على أي شيء من حقيقته. فالانفعال هو حالة كلية قائمة بذاتها، تكون في النفس حالة فيها، هي وإياها يقين واحد، فإذا ما اعتكف عليها العقل ليفهمها تجمدت وتبدلت، وعادت حالة أخرى، وما يقع بين يدي العقل منها هو الجزء المادي، أو الجزء الذي يلائم طبيعة العقل، بل إن ما يتلمسه العقل لا يلمس شيئا من حقيقة تلك المعاناة. مثال ذلك أن يحاول العقل فهم التجربة التي تستولي على النفس في حالة من أحوال الثكل. إن تلك الحالة هي شديدة التعقيد والتداخل في النفس. بل إنه لا حد لها، وكل ما يقبض عليه العقل منها هو القول أن تلك المرأة الثاكل هي في حالة حزن شديد، أو إنها في حالة يأس وافتقاد، وإنها فاقدة العزاء. وذلك كله لا يعدو الكلام الأخرس الأصم، كأن المرء لم يقل به شيئا عن حقيقة ما تعانيه تلك المرأة»[14].

ثم اهتديت بعد ذلك من خلال مطالعتي وتاملي، إلى وسيلة كثيرا ما ينصح بها الصوفية مريديهم وهي الرياضة الروحية، فبدأت اكثر من الصيام، حتى انني اغتنمت فرصة غياب أصدقائي في عطلة الصيف، فصمت اربعين يوما متتالية

14- إيليا الحاوي، "في النقد والأدب"، ص. 10، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986.

مع الاجتهاد في الذكر والعبادة. ثم بدات أقلل من الطعام، بل امسكت عن اكل اللحم والسمك والبيض... إلخ. واقتصرت على القطنيات والحليب والخبز ما يقرب من سنة لغاية أن جسمي بدأ يهزل، وقل وزني كثيرا وصرت اشعر بخفة في نفسي، وصفاء في ذهني، مع ميل إلى الصمت، واعتزال أصدقائي ما أمكنني ذلك. كما صرت أتحسس خمود القوى النفسية الحيوانية، كالقوة الغضبية والقوة الشهوانية. والحقيقة أن هذا التحول العميق هو ما يعبر عنه الصوفية بـ"الولادة الثانية". وهي ولادة معنوية جديدة تشكل نقطة البدء في الحياة الصوفية الجديدة، والتي هي طريق صوفي باطني تطهيري، قائم على قطع علاقات الصوفي المختلفة بالعالم، وإضعاف ذاتيته إلى حد التضاؤل والفناء.

ولن يستطيع الإنسان أن يملك نفسه إلا إذا جاهدها وراضها، فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه كهيئة المضطر، حتى ذبلت في النفس حرارة الشهوات، ثم زادوها منعا حتى ذبلت واسترخت، فكلما منعوها شهوة أتاهم الله عز وجل على منعها نورا في القلب فقوي القلب، وضعفت النفس، وحيي القلب بالله، جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات، حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات، فأشرق الصدر بتلك الأنوار، فجلب على النفس خوفا وخشية وحياء، واستولى على النفس وقهرها.

يقول المحاسبي: «أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذي لا صلاح لها في غيره، أن تعلم أنها مربوبة متعبدة، فإذا علمت ذلك أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه في العلم، ثم العمل بأمره ونهيه في مواضعه وعلله وأسبابه، ولن يجد ذلك إلا في كتاب ربه، وسنة نبيه ﷺ، لأن طاعة سبيل النجاة والعلم، وهو الدليل على السبيل، فأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، والدليل على محاسبة النفس، العلم بما تعبد الله، عز وجل، خلقه في قلوبهم وجوارحهم،

وكذلك أهل الدنيا، لا يعالجون الأعمال ولا يتكلفون التجارات، إلا ببصر قد تقدم منهم. وعلم بما يعملون، وبما يبتاعون ويبيعون»[15].

ولما كان أصل المجاهدة وملاكها، يكمن في فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها وإبعادها عن الرذائل وتحليتها بالفضائل، باتت مسألة الخلوة من المسائل التي تؤرقني وتصير ليلي نهارا. فصرت أحلم بخلوة أربعينية على منهج الصوفية، تلك الخلوة التي حببها إلي أبو حامد الغزالي غفر الله له، عند ما ذكر حديثا منسوبا إلى النبيﷺ: **«من أخلص لله أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»**[16]. فتأثرت بهذا الحديث وظننته صحيحا لقلة زادي في علم الحديث، ولم أتحمل عناء البحث في أصله ومدى صحته، شأني في ذلك شأن معظم الصوفية. فأصبح شغلي الشاغل هو إيجاد مسكن أعيش فيه وحدي، بعيدا عن الأصدقاء وحيث يمكنني أن أمارس خلوتي. وبعد أن أنهكني البحث وبلغ مني اليأس مبلغه، إذا بي أرى في منامي صديقا لي طالبا مغربيا، كان يمارس التصوف وكنت قد أعجبت به وبأخلاقه، ثم انقطعت عني أخباره ولم أعد أراه، فعجبت له عندما بادرني قائلا: «يا عبد الله إنك تبحث عن مسكن تختلي فيه بنفسك، أليس كذلك؟!» قلت له: بلى، فقال لي: لكنك أخطأت الطريق عندما لم تستخر الله، ألا تعلم أن النبيﷺ كان يستخير الله في كل أموره؟!». ولما استيقظت من نومي مبشرا بالرؤيا، حمدت الله وأثنيت عليه، وبعد صلاة العشاء صليت ركعتين، وقرأت دعاء الاستخارة، ثم طلبت من الله أن ييسر لي أمري، وإذا بي أرى في منامي في الليلة التالية طالبا مغربيا آخر كان يدرس الهندسة فقال لي: «يا عبد الله إنني أعلم أنك تبحث عن مسكن!!، وبما أنني أنهيت دراستي فسأسلم لك، إن شئت، مفتاح غرفتي بالحي الجامعي بمدينة انطوني جنوب باريس، غير أنك لا تخبر إدارة الحي بسفري، وما عليك إلا أن

---

15 - الحارث ابن أسد المحاسبي، "الرعاية لحقوق الله"، ص. 35.

16 - هذا الحديث موضوع. انظر موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج 9، ص. 176، مكتبة المعارف الرياض 1419.

تؤدي ثمن الكراء كل شهر. وبعد أسبوعين زارني الشخص نفسه، فلم أحدثه بالرؤيا لكنه بادرني قائلا، إن كنت تريد مغادرة هذا البيت، فإني أعرض عليك الإقامة في غرفتي بالحي الجامعي، فقد أنهيت دراستي وإني أنوي الرجوع إلى المغرب. فدهشت لمطابقة حديثه رؤيتي بالأمس، وازددت يقينا بأن طريق الخلوة يتهيأ بقدرة قادر!!.

لقد ايقنت بأن التصوف غدا بالنسبة لي خيارا روحيا لامفر منه، بل صرت اشعر بما يشبه النداء الباطني، أو هاتف غيبي يهتف في كياني، يدعوني إلى الخلوة والعزلة.



الفصل الثالث :

الخلوة الأربعينية

1- ولوج الخلوة

2- ممارسة الذكر

3- حلاوة الذكر

4- محبة القرآن

5- ابتهالات

6- أحلام ورؤى

1- ولوج الخلوة

اشتريت ثلاثة أو أربعة كيلوغرام من الدقيق، و لترا واحدا من الزيت، وقليلا من السكرو العنب المجفف والملح، وبعض العلب من الحليب، ودخلت مسكني الجديد في الحي الجامعي بمدينة انطوني، بعد أن ودعت أصدقائي. كان المسكن يحتوي على غرفة واحدة ومطبخ صغير، حيث كنت أهيء طعامي؛ اجعل جزءا منه للفطور بعد صلاة المغرب، و جزءا آخر احتفظ به لوقت السحور، وهو عبارة عن رغيف كنت اصنعه بنفسي، واعتمدت طريقة الإقلال من الطعام تدريجيا، حتى صرت بعد أسبوعين اكتفي بربع الرغيف في المغرب، وربع في السحور، مع حبات من الزبيب المجفف.

لقد كنت أوزع وقتي بين الصلاة والتلاوة و الذكر والتامل والتدبر، واجتهدت كل وسعي في تجريد عقلي من كل الخواطر النفسية المضنية، والتي لا طائل تحتها، وفي طرد الوساوس و الأفكار المتعلقة بالدنيا... وبعبارة اخرى اخضعت نفسي لعملية التخلية، باعتبارها خطوة أولى وأساسية في درب التجريد والتصفية الروحية. قال العلامة ابن قيم الجوزية، ....حراسة الخواطر وحفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها. فإن أصل الفساد كله من قبلها يجئ، لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فاذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد اخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال. ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع

الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها، بعد أن صارت إرادة جازمة. وهو المفرط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

إن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوسواس، وعزلته عن سلطانها وافسدت عليه رعيته، والقته في الأسر الطويل. وكما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض الخير إذا بذر فيها خواطر الإيمان، والخشية، والمحبة، والإنابة، والتصديق بالوعد، ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها، والقيام عليها أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها الملك في سلطانه، واستقامت له رعيته. ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين من ذلك، عملت على حفظ الخواطر، فكان ذلك هو سيرها وجل عملها، وهذا نافع لصاحبه بشرطين، أحدهما أن لا يترك به واجبا ولا سنة، الثاني أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعلها خواطر الإيمان والمحبة، والإنابة والتوكل والخشية، فيفرغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معا، كان خاسرا فلابد من التفطن لهذا، ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك، وعملوا على إلقاء الخواطر، وإزالتها جملة، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات، فظنوها تحقيقا وفتحا رحمانيا، وإنما هي خيالات شيطانية، والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة، والعقل المؤيد بنور النبوة والله المستعان»[1].

وما أن شارف الأسبوع الأول على النهاية، حتى كانت ثمرات الذكر قد أينعت، إذ فارقت الهموم قلبي. وحل محلها هم واحد وهو مذكوري وخالقي، وانكشفت غيوم الغموم، وأقبلت وفود الفرح، والسرور والبسط، وبذرت أرض القلب، وإذا

1- ابن قيم الجوزية، تحصيل الهجرتين وباب السعادتين، ص. 221-222، دار الكتاب العربي، بيروت.

بنبات المحبة يعلوه البهاء، قد كسا سطح تلك الأرض، فخضعت الجوارح، وخشع الكيان واقبلت المراقبة والإنابة، وغدا المذكور جليسي وانيسي. وشعرت بالسكينة والطمانينة والأمان، وشيء من حلاوة القرب، كما أن إرادتي بدات تفنى في مرادي، وهو الذكر الذي يحملني إلى مذكوري وحبيبي، ثم حيل بيني وبين دنياي البتة، حيث فقدت إرادة التفكير في موضوع الدراسة الجامعية، ولم أعد أقوى على استحضار صور أقاربي وأصدقائي، أو مناجاتهم عبر مخيلتي.

نعم إن الذكر بمفهومه اللساني والقلبي، وكذا من حيث انه تامل وتفكر، وتدبر وطاعة، وامتثال لأوامر الله، هذا الذكر له تاثير في تقوية الإرادة المثالية الهادفة واستثارة طاقاتها.

ولما كانت النفس ميالة بطبعها إلى الملذات والشهوات، واتباع سبل الغواية، كانت بذلك السبب المباشر في إضعاف الإرادة الإنسانية، والحيلولة بينها وبين القيام بالوظائف السامية، ولا سيما وظيفة الاستخلاف في الأرض. وهنا تبرز أهمية الذكر بمفهومه الشامل، باعتباره أعظم وسيلة لتهذيب نوازع النفس وميولاتها، والأخذ بيدها إلى ساحل السعادة والطمانينة، كما تبرز اهميته ايضا في إعادة الحياة إلى الإرادة الحقيقية الهادفة، خاصة وأن عنصر الإرادة هو أحد العناصر الجوهرية المكونة لحقيقة الإنسان، إذ لولاها لما كان مكلفا، ولما تحمل الأمانة.

ولما كان الإنسان في أغلب أحواله إذا مسه الخير منوعا، وإذا مسه الشر جزوعا، وكانت نفسه دائمة الشعور بالفاقة والحاجة، متحملة للمشاق في سبيل الحصول على رغباتها المتجددة والتي لا تنقضي، انعم الله عليه بالإسلام والقرآن، وعلمه على لسان نبيه صلوات الله وسلامه عليه، كيف يمكن أن يعيش في هذه الدنيا عيشة راضية. ومن هنا كان ذكر الله أفضل طريق موصلة على الحقيقة إلى الاطمئنان، والاقتناع بانه لا فاقة يمكن الشعور بوطاتها مع وجود الذكر الصادق، وممارسته بمفهومه الشامل والعميق.

ولعل أحسن من عبر عن هذا المعنى، العلامة محمد ابن قيم الجوزية رحمه الله إذ يقول، «في القلب خلة وفاقة لايسدها شيء البتة إلا ذكر الله عز وجل،

فإذا صار الذكر شعار القلب، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبع له، فهذا هو الذكر الذي يسد الخلة ويفني الفاقة، فيكون صاحبه غنيا بلا مال، عزيزا بلا عشيرة، مهيبا بلا سلطان، فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل، فهو بضد ذلك فقير مع كثرة جدته، ذليل على سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته»[2].

ولعل أسمى أنواع الذكر، أن تستحضر الله في قلبك، حتى تغدو كأنك تسمع الذكر بلسان الكائن الروحي المتعلق بذلك العضو الذي بين جناحيك، أو تشعر بعد التحقق بالخشية والحياء، بأن نظر الله المصوب إليك قد ملك عليك كيانك، فأنت مستغرق في الذكر وإن لم يتحرك به لسانك، أو مستغرق فيه، وأنت تمارس وظيفة الاستخلاف، أو تتفكر في مخلوقات الله، أو تنعم بما أحل الله لك من النعم.

وإذا غدا الاستغراق في الذكر لسان حالك، غمرتك حلاوة لم تعهدها من قبل، إنها حلاوة الذكر الناتجة عن الأنس بالله والقرب منه، وكلاهما ثمرة الطاعة والمحبة. فكل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، ومن أنست نفسه بالله لم يجد لذة في الأنس بغيره، ومن أشرق قلبه بالنور لم يعد فيه متسع للظلام.

ولقد أثر عن بعض الذاكرين قوله، «إنه لتمر بي أوقات أقول معبرا عنها، إن كان أهل الجنة في مثل هذا النعيم إنهم لفي عيش طيب». فمحبة الله تعالى ومعرفته، ودوام ذكره، والطمأنينة به، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل، بحيث يكون هو المستولي على هموم العبد وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم. وفي هذا المعنى يقول الفقيه ابن قيم الجوزية،

«الذكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا. وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق. ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

2- محمد بن قيم الجوزية، الوابل الصيب من الكلم الطيب، دار الكتب العلمية ص. 78.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ◆ ونترك الذكر احيانا فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات إذا اظلهم البلاء. وإذا نزلت بهم النوازل، فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس اموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا. ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورا.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و"الذكر" عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة. بل هم مامورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال، قياما، وقعودا، وعلى جنوبهم. فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلب بور خراب، وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها، إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر...، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضا من كل شيء.به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به السنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده. ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله، تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء، في الصلاة. وفي الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف، إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون، ما لهذا؟ فيقال، قد مسه الإنسي،[3].

3- محمد بن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج 2، ص.475-476 دار الجيل بيروت، د.ت.

إن المحبين من المؤمنين لما ذاقوا طعم المحبة، وسرى روحها في أوصالهم، اضرمت في قلوبهم نيران الشوق إلى الله، فاستخشنوا ما استلان الناس، ووطنوا العزم على لقاء الله. قال النبيﷺ في دعاء له، **«أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»**. ومما لا ريب فيه أن النبيﷺ كان دائم الشوق إلى لقاء الله، وكذلك من اقتدى به واهتدى بهديه ناله نصيبه من الشوق ذاته. وما ظفر المحبون بنعيم المحبة ولذة الشوق إلى الله إلا بدوام ذكره، والذكر هو العبادة التي يتزود منها السائر إلى الله سبحانه. ومثله كمثل الزاد للمسافر تماما، فإذا نقص زاده وقل طعامه قد يتعرض للهلاك. فالذكر هو مكان التزود للسير في الطريق، وهو المنزلة التي يتردد عليها باستمرار أهل الإيمان والجهاد والتقوى، ومن اكرمه الله سبحانه بدوام بذكره، فقد اكرمه بفتح الباب إليه والسماح له بالقرب منه.

ثم إن العبد مفتقر إلى الله في كل أحواله وأوقاته، فلا يستطيع الاستغناء عنه برهة من الزمن، ولا طرفة عين. وحاجته إليه أعظم إلى حاجته من الماء والهواء. ومن هنا كان الذكر من أعظم الوسائل لتحقيق مقام المعية والقرب من الله، يقول العلامة الفقيه محمد ابن قيم الجوزية، «إن فقر العبد إلى الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئا، ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه، حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس، فيقاس به، لكن بينهما فروق كثيرة، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحا فملاقيه، ولا بد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته، وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا في حال وبهذا في حال، وكثيرا ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته. وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته

وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان...»[4].

2- ممارسة الذكر

في بداية الأسبوع الثاني، عزمت على ممارسة الذكر بالإسم المفرد "الله، الله".. وكنت قبل بضعة شهور، قد قرأت كتابا لابن عطاء الله السكندري تحت عنوان: "القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد"، كما أن كثيرا من المتصوفة أشاروا إلى المزايا والمنح التي يجنيها الذاكر من ممارسته لهذا النوع من الذكر. وهكذا توكلت على الله، واستقبلت القبلة، وأغمضت عيني، واستحضرت عظمة الله سبحانه وتعالى، وجلاله وجماله وكماله وفضله ولطفه، وتأملت أسماءه الحسنى وصفاته العلا، حتى تغلغلت معانيها في ذهني، ونهل من رحيقها قلبي، كل ذلك وأنا أستحضر في مخيلتي لفظ الجلالة. ثم شرعت في قولي: "الله، الله، الله..."، بكل بطء وسكينة، مع تحريك اللسان حركة ضعيفة جدا، وسرعان ما حصل تواطؤ اللسان والقلب، وانشرح الصدر، وخمدت الجوارح والأعضاء. ومكثت على هذا الوضع ما يقرب من ساعتين.

لم يكد يمر يومان على ممارسة الذكر بالاسم المفرد، حتى حصل في باطني ما لم أستطع تحمله في الساعات الأولى، لقد فوجئت بموسيقى تنفجر في دماغي، ويصل صداها إلى أذني الباطنيتين!!. فقلت في نفسي لعل ما أسمعه قد حمله إلي الأثير من إحدى الغرف المجاورة، ففتحت نافذة الغرفة ولم أسمع شيئا، لا سيما وأن معظم الطلبة القاطنين، كانوا في سفر بسبب عطلة من عطل السنة الدراسية. غير أن صوتا واحدا كان يصل إلى مسمعي مصدره حركة السيارات على طريق سيار بالقرب من مبنى الحي الجامعي. والغريب أن تلك الموسيقى كانت الذ ما سمعت أذناي من أنواع الموسيقى، ولها شبه كبير ببعض

4- ابن قيم الجوزية، كتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص. 37.

مقاطع السنفونيات الشهيرة. وأحيانا كان صوتها يفتر قليلا، لكي يعلوه صوت آخر حيرني كثيرا، وهو عبارة عن ترتيل لدعوات وأشعار وأذكار يبدو كأنها تصدر من حلقة صوفية لا تبعد عني كثيرا!! وسرعان ما تذكرت ما قاله بعض الصوفية في هذا الشان فاطمان قلبي قليلا، لكنني تساءلت قائلا، وما مصدر الذكر الذي اسمعه؟ ثم فكرت واعملت عقلي لكن دون جدوى، فلم أهتد إلى تفسير ولم أعثر على جواب، بيد أن النشوة الروحية الناتجة عن الحان الموسيقى والذكر، حملتني بعيدا إلى عالم لا محدود، أحس فيه بسعادة باطنية لا مثيل لها. لم اكن اشك وانا في غمرة هذه النشوة الروحية، أن هذه هي الحال الذي طالما عبر عنها الصوفية بالمنزلة الروحية، التي يحصل فيها الإشراق وتفيض عليهم فيها المعرفة الذوقية.

ولقد كان ذلك الإشراق يتجلى لي أحيانا في صورة البرق الذي يومض لحظة ثم يخبو، وأحيانا يدوم لحظات. وهي حال تجل عن الوصف، وتصحبها لذة هي من اعظم ما قدر للإنسان أن يحظى به في هذه الحياة الدنيا .كما كان النشيج يباغتني بين الفينة والأخرى، وتنهمر الدموع مدرارا، تعبيرا عن الفرح بهذه "النعمة"، وخوفا من فقدانها زمن الجلوة، أي بعد الخروج من الخلوة والعودة إلى مجتمع الناس.

وأحيانا كنت أظل أبكي أوقاتا طويلة، وأنا مضطجع في غرفتي واضعا خدي على الأرض، وقد أصابه بلل الدموع التي امتلأت بها المآقي، يا له من طرب وهيام وأنس. وأعقب ذلك إحساس بشهود المنة والجمال، وبقيت أصوات الموسيقى والذكر منبجسة لا تعرف خمودا أياما طويلة، حتى بعد خروجي من الخلوة.

وذات يوم تذكرت كلاما متعلقا بهذا الأمر، كنت قد قرأته في كتاب لأحد المتصوفة لا اتذكر اسمه الآن، ولعله ابن عطاء الله السكندري، ومفاده أن المريد السالك إذا ما اكثر من ذكر الله وهو يردد الله، الله.... قد تنبعث من كيانه أصوات والحان وموسيقى، يجد بها لذة باطنية عظيمة الشان. وسبب ذلك،

حسب قوله، يرجع إلى أن الذاكر، بحكم الخلوة والصوم وكثرة الذكر، يحصل له من الصفاء الذاتي ما يجعله يستمع إلى ذكر كيانه المادي والعضوي، وذلك من خلال العناصر الأربعة الأساسية المكونة لبدن الإنسان؛ وهي الماء والهواء والنار والتراب. فلهذه العناصر لغتها في الذكر والتسبيح، يسمعه الذاكر بسمعه الباطني على شكل الحان موسيقية؟؟؟!! وهذا تفسير او تاويل غير مقنع، ولعله اقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة. وفي هذا الصدد يقول الإمام محمد بن قيم الجوزية: ،إن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة وانقطعت عن الشواغل الكثيفة، صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن، ومصير الحكم لهما. فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعاني التي هي متصلة بهما، وتشتد عناية الروح بها. وتصير في محل تلك العلائق والشواغل. فتملأ القلب، فتصرف تلك المعاني إلى المنطق، والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة. ويتفق تجرد الروح، فتتشكل تلك المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة. وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية. فيرى صورها، ويسمع الخطاب. وكله في نفسه ليس في الخارج منه شيء. ويحلف أنه رأى وسمع، وصدق، لكن رأى وسمع في الخارج، أو في نفسه؟ ويتفق ضعف التمييز، وقلة العلم، واستيلاء تلك المعاني على الروح، وتجردها عن الشواغل،[5].

ومن ناحية أخرى، فإن ذكر الله بصيغة لفظ الجلالة استدرجت إليه استدراجا من خلال قراءتي لكتب المتصوفة. ولم يثبت عن النبيﷺ، ولا عن الصحابة أو التابعين، أنهم كانوا يذكرون الله بتلك الصيغة، أي وهم يرددون "الله، الله، الله".

وفي الموطأ والصحيحين أن النبيﷺ قال: **،أفضل ما قلت أنا والنبيئون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير،.**

5- مدارج السالكين: ج1، ص.73-74.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله. وإنما الغرض هنا أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيدا مثل: "لا إله إلا الله"، ومثل: "الله اكبر" ومثل: "سبحان الله والحمد لله"، ومثل: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ومثل: (تبارك اسم ربك)، (تبارك الذي بيده الملك)، (سبح لله ما في السموات والأرض) (تبارك الذي نزل الفرقان).

فاما الاسم المفرد ،مظهرا مثل: "الله" الله.. أو "مضمرا" مثل "هو" "هو". فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو ماثور أيضا عن احد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتاخرين.

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه، مثلما يروى عن الشبلي انه كان يقول: "الله، الله". فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه، وقوة وجده، وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته. وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذورا أو مأجورا، فإن العبد لو أراد أن يقول: "لا إله إلا الله" ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئا. إذ الأعمال بالنيات، بل يكتب له ما نواه.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة، وربما قال بعضهم: "لا إله إلا الله" للمؤمنين، و"الله" للعارفين، و"هو" للمحققين، وربما اقتصر احدهم في خلوته أو جماعته على "الله، الله، الله". أو على "هو" أو "يا هو" أو "لا هو إلا هو"[6].

والخلاصة أن الشارع كان حكيما عندما نص على أن صيغة الذكر ينبغي أن تكون مفيدة وذات معنى، فالذاكر عندما يردد لا إله إلا الله، فإنه ينتقل من معنى النفي إلى معنى الإثبات، اي انه ينفي صفة الألوهية عما سوى الله، ثم يثبتها لله وحده، وهو بذلك يعمل على غرس بذور التوحيد الخالص في قلبه وينفي عنه كل

6- احمد ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص556-557.

أنواع الشبه والوساوس والضلالات. وهكذا تتأصل شجرة التوحيد في صدره، ثم تمتد فروعها في جوارحه وأقواله وأفعاله، ويصبح كيانه مشرقا ومتلألئا بنور التوحيد. أما إذا كان الذاكر يردد لفظ الجلالة قائلا، "الله، الله، الله..."، فإن ذهنه لا يكون مرتبطا بكلام مفيد، أضف إلى هذا أن الله اسم يدل على الذات الإلهية، والذات الإلهية لا يحيط بها ولا يتصور حقيقتها عقل. وبالتالي فإن الإنسان الذي يفكر في موضوعها يضرب في حديد بارد ويطلب المستحيل، وقصارى ما يصل إليه أو ما يظفر به، مجموعة من الخيالات والأوهام الفاسدة، التي قد تفضي به إلى الحلول والاتحاد، أو وحدة الوجود وما إلى ذلك من الاعتقادات الضالة. لهذا نهى الشرع عن التفكر في الذات الإلهية وجوهرها أو حقيقتها.

وبالمناسبة أسوق كلاما لابن عطاء الله السكندري وهو من المتصوفة الذين غرقوا في هذا اليم، ،ولذاكر هذا الاسم المفرد أعني الله حالات. حالة الوله والفناء، وحالة الحياة والبقاء، وحالة النعم والرضا. فأما الحالة الأولى من الوله والفناء وهو الذي يقتصر على ذكره ولا خاصة في بدايته دون غيره من الأسماء ويجعله نجيا. ويحقق ذكر الهاء فيه حين يذكره. فمن داوم على ذلك محي ظاهره وامحق باطنه فكان في ظاهره كالمجنون والموله الممحق عقله عنه لا يقبل عليه أحد من الخلق ويفر الخلق منه، ولا يسكن إليه لأجل ثبوت الوله الذي كسا ظاهره،[7].

وأحمد الله سبحانه وتعالى أن صرفني عن ذكره بلفظ الجلالة بعد أيام قليلة، والتزمت ذكري له بما شرع من الأذكار. ولولا لطفه ورحمته لقذف بي في بحار الأوهام والجنون كما حصل للشبلي وغيره.

أما فيما يتعلق بالأذكار والأمداح التي كانت تنبعث من كياني، وأنا أستمع إليها بشغف ومحبة، فإني قد عثرت على كلام لأبي القاسم القشيري، يشتمل على توضيحات هامة متعلقة بهذا الأمر، لاسيما وأن هذا الكلام ذكر في

7- ابن عطاء الله السكندري، القصد المجرد في معرفة الإسم المفرد، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، ص.78.

سياق الحديث عن الآثار النفسية والروحية الناتجة عن الذكر بالإسم المفرد أي اسم الجلالة.

يقول أبو القاسم القشيري، «يقول له الأستاذ، قل، الله الله الله، ثم يوصيه أن يواظب على قول هذا الذكر، وأن لا يشهد غيره، وأن لا يفكر في غيره، وإن اشغله عن هذا الذكر أمر من الأمور يطرح ذلك الأمر، ولو كان موت والديه، ولا يفعل من الطاعات إلا الفرائض والسنن وركعتى الضحى، وبعد كل وضوء ركعتين، فأما ما سواه من النوافل وقراءة القرآن، فلا يشتغل إلا بهذا الذكر إلى أن يغيب بالذكر عن جميع الأشياء بتوفيق الله لقوة إرادته. ثم يغيب بالذكر عن نفسه، ثم يغيب بالذكر عن الذكر، يردد مدة طويلة بين غيبة عن الذكر بالذكر، وبين حضور الذكر، ثم لا يزال يرتقى في كل غيبة وحضور إلى رتبة اخرى، ثم يرد ورود آخر عليه أعلى من هذا، فيفنى العبد عن الذكر وعن هذه الأحوال، فإذا رد إلى حال البقاء بعد هذه الغيبة يسلب عنه لسانه وسمعه وبصره، إلا شهادة القلب ولا يمكنه أن يقول باللسان، ويقول بالقلب نطقا لا علما ومشاهدة، بل كما كان ينطق بلسانه قبله، يذكر بقلبه حتى يرد ورود آخر عليه بعد مدة ما شاء الله أعلى من ذلك من حيث الهيبة، فيبدو على العبد من الهيبة ورود يظن انه قريب من الحق، فيفنى العبد فيه ثم يتردد بين البقاء والفناء، وكل مرة يرد إلى البقاء تزداد عبارات قلبه، حتى ينتهي إلى اذكار يجدها مرة قلبه بالسنة مختلفة وعبارات لم يسمعها قبله ولا خطرت بباله قبله، يجد ذلك "الله" في قلبه حتى يتوهم ان جملة الكون يذكر الله بعبارات مختلفة أحيانا، ويصير بحيث لا يميز بين ذكره الذي يبدو من قلبه، وذكر الكون من غلبات الذكر، عليه فيسمع جميع هذه الأذكار، ثم بعده يرد ورود آخر بحيث لو ذاق هذا الورود غير من سلك هذه الطريقة على سبيل الوهلة، لمات من هيبة الله سبحانه حتى يفنى هذا العبد ولا يبقى منه شيء»[8].

8- أبو القاسم القشيري، الرسائل القشيرية، تحقيق د. فير محمد حسن، المكتبة العصرية، ص.65-66-67.

وخلاصة القول أن قوله، ،وكل مرة يرد إلى البقاء تزداد عبارات قلبه، حتى ينتهي إلى أذكار يجدها مرة قلبه بالسنة مختلفة، وعبارات لم يسمعها قبله ولا خطرت بباله قبله.. يذكرني فعلا بتلك الأصوات والأذكار والأمداح المشار إليها آنفا. وهذا يجعلني أخلص إلى نتيجة مهمة؛ وهي أن هذا النوع من الذكر هو الذي يؤدي بصاحبه إلى هذا الشعور، وإلى تلك الإحساسات الباطنية التي تتجلى في صيغة أصوات وأذكار... خاصة إذا كان الذاكر ممارسا للخلوة، بما تتضمنه من شروط وترتيبات (الصمت الدائم، الصوم، الجوع، السهر...).

ولم يثبت عن الصحابة أو التابعين، ولا عن الأئمة الكبار، أمثال مالك، والشافعي، وأحمد ابن حنبل، وأبي حنيفة، ولا عن رجالات السلف الصالح، أنهم خاضوا في هذا البحر، وسمعوا أصواتا وأذكارا باطنية -مع كثرة ذكرهم وقوة عبادتهم وتبتلهم وخشوعهم- لأنهم كانوا أحرص الناس على اتباع سنة المصطفىﷺ في الذكر، وفي سائر العبادات وأعمال الطاعة، كما أنهم لم يمارسوا الخلوات الصوفية ولا السياحات الرهبانية.

3- حلاوة الذكر

ولقد أصبح باطني مستقرا لمعاني أسمائه وصفاته، وغدت حقائق الآخرة أقرب إلي من حبل الوريد، بحيث أن نسبتها لقلبي صارت كنسبة المرئي إلى العين. كذلك ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا، أي امتلأ بنور الهداية لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالى، فإن صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته كما أن مخلوقاته لا تحل فيه، فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وشيئا فشيئا قذف بي الاستغراق الروحي المتصل في عالم الذوق والوجد الإيماني.. وقد ذكر النبيﷺ ذوق طعم الإيمان، ووجد حلاوته، فذكر الذوق والوجد وعلقهما بالإيمان، فقال: ،ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام

دينا وبمحمد رسولا.[9]، أي أن للإيمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب. قال العلامة محمد بن قيم الجوزية، .ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق، بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى؛ وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن؛ .ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل.

فالذوق والوجد، أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد.[10]. وقال النبيﷺ أيضا، .**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.**[11].

وبدأت أحس بمحبة الله تسري في كياني، بل وكأني أستمع إلى لغتها تتغنى بها جوارحي وأضلعي وخلاياي، فتبين لي بيان يقين أن كل ما وقع عليه بصري في الكون وما لم يقع عليه، يسبح ويسبح في فلك محيطه قبضة جلالية. وإذا تجلت لي أنوار الجلال وكنت في موطنه، قوي يقيني فسمعت ذلك التسبيح، وحد بصري بنور بصيرتي، وأحالتني آيات الكون على المكون، فشغلت بمحبوبي عما سواه، وطوي زماني، وقصرت المسافات، وغدا الأجل عاجلا والعسير سهلا.

ويقول العلامة محمد بن قيم الجوزية أيضا، .من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على الذكر.

9- رواه مسلم.

10 - محمد بن قيم الجوزية، مدارج السالكي، ج3، ص.104-105.

11 - رواه البخاري ومسلم.

ومنهم من لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطآ جميعا.

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه. والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولا حتى يحس بظهور الناطق فيه. فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرا»[12]. فقوله «حتى يجد كل شيء منه ذاكرا» ينطبق تماما على الحال الذي كنت أشعر به بعد الأيام الأولى من ممارسة الذكر، كما يعبر أحسن تعبير عن روح الذكر عندما تسري في الكيان الجسدي، فتمتزج بالخلايا وتصيرها ذاكرة، فيحس الذاكر من أثر ذلك بخشوع في جوارحه وبدنه كله فيغدو كل شيء منه ذاكرا.

ثم إن الإنسان يعتبر جزءا لا يتجزأ من هذا الكون العظيم، وبالتالي فإن مفهوم التسبيح الذي يشكل القانون والمنهج الجوهري الذي تنتظم فيه كل المخلوقات انطلاقا من قوله تعالى: **﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾**[13]، يعبر عن الخاصية الذاتية لهذه المخلوقات، وبالتالي فإن هذا الانسجام والتناغم الذي يعم الكون له علاقة وطيدة بمنطق التسبيح. وإذا كان الخالق سبحانه قد أودع في مخلوقاته، من حيوانات ونباتات وخلايا وأنهار وبحار ونجوم وكواكب، قانون التسبيح، وألهمها ذكره والدوران في فلكه، فإنه قد هدى الإنسان إلى نفس القانون بواسطة الوحي المنزل من عنده.

ومن هنا فإن الإنسان الذي يعرض عن تعاليم القرآن التي هي تعاليم فطرته المفطور عليها، فإنه يتحول إلى عنصر شاذ يصطدم بعناصر الكون بما في ذلك نفسه التي بين جنبيه، كما أن كل ما في الكون ينقلب ضده، ويدخل في صراع معه، لأن الكون يدور ويسبح ويسبح في فلك مادي ومعنوي. وما دام الإنسان جزءا

12- محمد بن قيم الجوزية، الفوائد، ص. 234، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1422 /2002.

13- سورة التغابن، آية 1.

من الكون. فإما أن يدور ويسبح وتلك فطرته، وإما أن يلفظه الفلك فيغدو نشازا شاذا. وكمثال حي على الإنسان الذي لفظه فلك التسبيح؛ الشخص المنتحر، أو اللعين المطرود من رحمة الله، أو المصاب بأمراض نفسية حادة، أو المشرك بالله الذي خر من السماء، ولم يعد له مكان فيها مصداقا لقوله تعالى: **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾**[14]. وهذا أبلغ تعبير وتصوير لطرد الإنسان من فلك التسبيح.

ولو لم يكن الذكر والتسبيح من أعظم ما يتلذذ به الذاكر الصادق المحب له، لما كان التسبيح مما يلهمه أهل الجنة في غرفاتهم وجنانهم، قال رسول اللهﷺ: **«يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس»**[15].

وبلغت مناجاة قلبي لربي مداها، وإن سكت لساني عن الذكر، إذ أن لذة استيلاء ذكره تعالى ومحبته على قلبي، وحضوري بين يديه، وأنسي به، وقربي منه، صيرني كأني أخاطبه وأحدثه، فأعتذر إليه تارة وأرجوه وأتملقه تارة أخرى، وأسر إليه ما يختلج في صدري... ثم غدوت أتنسم روح الأنس بالله، «والروح للروح كالروح للبدن فهو روحها وراحتها. وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه. فحينئذ تنسم روح الأنس بالله. ووجد رائحته. إذ النفس لا بد لها من التعلق. فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس بالله. وهبت عليها نسماته. فريحتها وأحيتها»[16].

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

14- سورة الحج، آية 31.
15- رواه مسلم.
16- مدارج السالكين، ج2، ص34.

وجميع طرق الأدلة، عقلا ونقلا وفطرة وذوقا، تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده قال تعالى: **﴿يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين﴾**[17].

وفي صحيح البخاري عن ابي هريرةﷺ قال، قال رسول اللهﷺ: ،يقول الله تعالى: ،من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سالني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا اكره مساءته،[18].

وفي الصحيحين عنه ايضا عن النبيﷺ انه قال: ،**إذا أحب الله العبد دعا جبريل، فقال: إني احب فلانا، فاحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء: فيقول: إن الله يحب فلانا فاحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض**،[19]. وذكر في البغض عكس ذلك.

،والمحبة حقيقة العبودية. وهل تمكن إنابة بدون المحبة والرضا، والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك "الزهد" في الحقيقة: هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته.

وكذلك "الحياء" في الحقيقة. إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم. وأما ما لايكون عن محبة: فذلك خوف محض.

---

17 - سورة المائدة، آية 54.

18 - رواه البخاري.

19 - حديث صحيح.

وكذلك مقام "الفقر"، فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه. لاسيما إذا وحده في الحب، ولم يجد منه عوضا سواه. هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك "الغنى" هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك "الشوق" إلى الله تعالى ولقائه فإنه لب المحبة وسرها،[20].

قال الشاعر[21]،

فمـــا كل عين بالـحبيب قريرة
ولا كل من نودي يجيب المنـاديـا
ومن لا يجب داعي هـداك فخلـه
يجب كل من أضحى إلى الغي داعيا
وقل للعـيـون الرمـد، إياك أن تري
سنا الشمس فاستغشي ظلام اللياليا
وسامح نفوسا لم يهبها لحبهم
ودعها وما اختارت ولاتك جافيا
وقل للذي قد غاب، يكفي عقوبة
مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا

4- محبة القرآن

ولقد حبب إلي القرآن واقبلت على تلاوته أشد ما يكون الإقبال، وبما أن القلب كان خاليا من الشواغل، ونوافذه موصدة في وجه الخواطر الشيطانية، فإن معاني الآيات كانت تنساب في كياني انسياب الماء العذب الزلال في مرئ الظمآن، فكنت أتذوقها وأتنعم بحلاوتها، كيف لا والقرآن نور البصائر من عماها، وشفاء

20- مدارج السالكين، ج3 ص.30-31.

21- مدارج السالكين، ج3، ص.36.

الصدور من أدوائها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح، يا أهل الفلاح حي على الفلاح. نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم، ،يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم،.

اسمع والله لو صادف آذانا واعية، وبصر لو صادف قلوبا من الفساد خالية. لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء، فاطفات مصابيحها. وتمكنت منها آراء الرجال، فأغلقت ابوابها وأضاعت مفاتيحها. وران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذا. وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل[22].

،افيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال،[23].

،وبعد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى، **﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**، اقسم سبحانه أن كل واحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح. وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولايتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

22- مدارج السالكين، ج1، ص. 25-26.

23- مدارج السالكين، ج1، ص. 28.

فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لاتقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته.[24]

ومن ناحية أخرى فإن إدراك الطبيعة العلوية للخطاب القرآني واستشعار الحق الكامن فيه، يتطلب تجريد النفس من أهوائها، والإنصات إلى معانيه بقلوب منفتحة صادقة. والأسباب المساعدة على ذلك كثيرة، سأقتصر على ذكر أهمها:

أولا: حضور القلب أثناء التلاوة، وهو أس هذا البناء وشرطه اللازم، إذ كيف يتصور جني ثمار التلاوة والقلب ساه أو غافل. قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾. ولكي يتم للعبد حضور القلب أثناء التلاوة، ينبغي له أن يجمع همته ويركزها في القصد المطلوب. وهذا أمر منطقي ومجرب؛ فإن الذي عقد العزم على إتيان أمر ما، أو القيام بمهمة معينة واستفرغ لذلك وسعه وبذل فيه جهده، لا بد أن يحصل له من التركيز فيما هو مشغول به، والانصراف عن كل ما يشوش عليه عمله. وعلى قدر محبته وتعظيمه لذلك الأمر ماديا كان أو معنويا، يتحرر باطنه من الوساوس والأفكار المثبطة، وصنوف من أحاديث النفس الجالبة للكسل والوهن، والمسببة في الإعراض عن القيام بجلائل الأعمال. وإذا كان التركيز وجمع الهمة في أمر دنيوي ابتغاء تحقيقه ونيله يفضي في غالب الأحيان إلى الغرض المقصود، فمن باب أولى أن يؤدي هذا الشرط إلى الغرض المرجو إذا تعلق الأمر بقراءة القرآن.

وغني عن البيان أن الذي يقبل على قراءة الذكر الحكيم بشغف وهمة ووقار، مع تعظيم للرب، وإخلاص الدين له، وصدق لهجة المناجاة من خلال الترتيل، يجد من اللذة الروحية ما يعجز عن وصفه الواصفون.

ثانيا: الخشوع، ثم إن حضور القلب ينتج عنه الخشوع، وذلك بطريقة تلقائية، فمن حضر قلبه خشع. قال تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**

24- مدارج السالكين، ج1، ص. 28-29

وما نزل من الحق﴾[25]. وقال أيضا: **﴿الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾**[26].

والخشوع يجعل قلب المسلم يذل ويخضع لخالقه، كما تلين جوارحه لطاعته، وبالتالي فإن باطنه يغدو محلا لتنزل الرحمات، وورود الإشراقات والنفحات الإلهية. ثم إن اللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن، يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا، ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد. والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانهم، يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يخطر على بال غافل، ولا يرقى إليه عقل جاهل.

ثم إن الآيات القرآنية تتارجح في صورها ومشاهدها بين الوعد والوعيد، محدثة بذلك توازنا وطمانينة في باطن المسلم. ولولا ذلك لما كان في مقدوره أن يحافظ على سكينته النفسية، ومن هنا فإن الآيات المعبرة عن مشاهد النعيم تخفف من وطاة الخشوع والخوف الناتجين عن التامل والتمعن في الآيات المعبرة عن مشاهد العذاب وأهوال القيامة.

وإذا تعود المؤمن استحضار قلبه والتحلي بحلية الخشوع أثناء تلاوة القرآن فقد أذن لنفسه في ولوج عالم التدبر، وهو فضاء معنوي فسيح لا يتوقف عن الاتساع بفضل إمدادات حالتي الحضور والخشوع، وترى العبد يسبح في أرجائه ممتطيا معاني الآيات، منتهلا من حروف "إقرأ"، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. تارة تعتريه الدهشة والحيرة، من شدة الأنوار الساطعة من أصل تلك الحروف، وما تحمله من إيحاءات ربانية متلألئة، وتارة أخرى ينجذب إلى صلصاله الطيني حتى لايزيغ عن دورته الفلكية، أويحمله هيمانه إلى عالم قد يكون فيه حتفه، كما لأصحاب الحلول ووحدة الوجود من الصوفية، وحتى يعرف أن التحقق بالعبودية الحقة يستلزم القيام بواجبات الاستخلاف وتطبيق شريعة الله.

25- سورة الحديد، آية 15.

26- سورة الزمر، 23.

قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: «ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنه لايخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة؛ وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه، رأيته غضا طريا، وجديدا مونقا، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا، وهذا أمر يستوي في أصله العالم الذي يتذوق الحروف ويستمري تركيبها ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه. وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر، ولا نرى جهة تعليله ولانصحح منه تفسيرا، إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والحس، والجهر والقلقلة، والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا، وإفرادا وتكريرا»[27].

ثالثا: التدبر، قال تعالى: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾**، [ص 29].

وقال أيضا: **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾**، [النساء 82]. وقال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**، [محمد 24].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على التدبر والتأمل وإعمال العقل والفهم، وقراءة القرآن بلا تدبر كممارسة العبادة بلا فقه ولا خشوع، وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها، وهي: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»، [المائدة 120][28].

27- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص.218، دار الكتاب العربي بيروت، 1410/ 1990.

28- أخرجه النسائي وابن ماجة بسند صحيح.

وترديد الآيات اثناء القـراءة او في صـلاة الليل، له اثر عـميق في النفس لكونه يفضي بصاحبه إلى التدبر والتأمل، فتتحرر نفسه من قفصها... وتنجذب إلى عوالم الآخرة والسكينة.

كـمـا ان تدبر القرآن يبعث على تامل وفهم دلالة الآيات على المـقـاصد التي يرشد المسلمين إليها، واستنباط المعاني واستخلاص العبـر، وفي ذلك خير عظيم يجلبه لنفسـه القارئ المتدبر والمتفهم لآيات الله. ولقد كان ذلك داب السلف الصالح ومنهجهم في التعامل مع القرآن الذي انفعلت به نفوسهم، وتاثرت به قلوبهم، فظهر اثر ذلك على جوانحهم وفي أعمالهم الجليلة.

رابعا، التاثر، وهو أن يتاثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد، يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية اغلب الأحوال على قلبه. قال تعالى، **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾** [الأعراف، 256]، فالإحسان يجمع الكل، وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره، ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن. وبذلك قال الحسن البصري، والله ما أصبح اليوم العبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته.

توالت الأيام... ولم يكد يقبل اليوم الأول من الأسبوع الثالث حتى أصبح قلبي مشغوفا بالقرآن، وصرت كلما شرعت في قراءته، اجهشت بالبكاء فتنهمر الدموع مدرارا، فاشعر ببرد اليقين والأمن والطمانينة، ويخترق صدى قراءتي طبلة أذني قاصدا شغاف قلبي، فيحدث هزات وقشعريرة، أجد أثرها اللذيذ في صدري وجوارحي وسائر اعضائي وخلاياي. فتساءلت مع نفسي لماذا لم اكن اشعر بمثل هذا الشعور عندما كنت اقرا القرآن قبل الخلوة؟ لنستمع إلى كلام العلامة محمد بن قيم الجوزية وكانه يجيب عن هذا التساؤل،

،وقد يكون هذا المسموع شديد التاثير في القلب. ولا يشعر به صاحبه، لاشتغاله بغيره، ولمباينة ظاهره لباطنه لذلك الوقت. فإذا حصل له نوع تجرد

ورياضة، ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثر.فكلما تجردت الروح والقلب، وانقطعتا عن علائق البدن، كان حظهما من ذلك السماع أوفى، وتأثرهما به أقوى. فإن كان المسموع معنى شريفا بصوت لذيذ، حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له. وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه، فابتهجت به. فتتضاعف اللذة ويتم الابتهاج ويحصل الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح وعلى الجليس»[29].

5- ابتهالات :

وقد حضرني أثناء الذكر وقراءة القرآن بعض المعاني والإشارات فكتبتها على شكل ابتهالات،

إلهي؛ أسألك أن تلقي علي محبة منك، وتفتح لي من رحمة لاممسك لها، أصبح وأغدو وأمسي متفيئا ظلالها حتى ألقاك.

إلهي؛ أنت الذي هديتني وأنت الذي أرشدتني، لكن من عساه يؤمنني مكرك، أو ينقذني منك يوم تبطش البطشة الكبرى. ألم يكن إبليس من الطائعين؟ أعوذ بك منك لا ملجأ منك إلا إليك، لعلي أعمل في غير معمل، أو أحسب أني أحسن صنعا إن لم تأخذ بناصيتي ضللت، وإن أوكلتني إلى نفسي هلكت، من علي بالطمأنينة واربط على قلبي، كما ربطت على قلب أم موسى أو قلوب الفتية؛ (إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا) حسبي أنت، حسبي أنت حسبي أنت.

29- مدارج السالكين، ج 2، ص. 462-463.

إلهي؛ أسألك أن تعصمني في حركاتي وسكناتي وخطراتي، وأن تسبل علي كثيف سترك حتى تغيب عيوبي عن عيون خلقك. كي أذكرك في نفسي فتذكرني في نفسك.

إلهي: أسالك أن تعينني على اقتفاء أثر الرسول محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأن تضئ جوانب قلبي بشعلة من نور سراجه الوهاج، وأسالك أن تقذف في قلبي نورا من عندك يزيح شبح الظلمات، ويبدد أستار الأوهام، كما تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

إلهي؛ أسألك أن تجعلني أعبدك كأني أراك، وإذا هممت بفعل سوء أو مسني طائف من الشيطان تذكرتك، فخفت مقامك، واملأ قلبي بخشيتك حتى لا يبقى فيه خاطر سوء قد يغضبك، وحتى لا تتحرك جوارحي إلا بما يرضيك، واجعل الوقار ثابتا في أصل فؤادي، واجعل الصمت إلا عن ذكرك وفيما تحب أفضل شيمي.

إلهي؛ أسألك أن تحبب إلي عبادتك ومناجاتك والأنس بك، فإذا أظلم الليل ولمع النجم وسكنت النفوس، اجعلني ممن تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وممن يهجرون الفراش متأسين بنبيك، ومقبلين عليك، عسى أن ينفعني ذلك يوما يجعل الولدان شيبا.

إلهي؛ أسألك أن تجعلني في زمرة الذين بايعوك، فعلمت ما في قلوبهم، فأنزلت السكينة عليهم، فسكنت نفوسهم، وهدأ عنهم الروع، وثبت إيمانهم ويقن، حتى غدت كل حركاتهم وسكناتهم بك ومنك وإليك.

إلهي: اشتقت إلى لقائك، وحيرني حنين الرجوع إليك، فاجعل سفري إليك سفر نوح في الجارية، ولجوئي إليك لجوء الفتية إلى الكهف، واجعل لي عندك زلفى وحسن مآب.

إلهي: لطفك وعنايتك بي جعلاني أوقن بأن كل شئ في هذا الكون يسبح بحمدك، وكل حي وكل جامد له لسان يسبح به، وما من موجود إلا والتسبيح سار في كيانه، إذ ليس في الوجود إلا معبود ومسبحون. فامنن علي بلسان لا يفتر عن تسبيحك، وقلب لا يسأم معلقا بك، لعلي بذلك أحقق عبوديتي لك.

إلهي: أسألك سؤال من غشيه الموج وظن ألا ملجأ منك إلا إليك، أن تجعلني أفر إليك قبل أن يفر مني أخي وولدي وأمي وأبي وكل عشيرتي، يوم مجيء الصاخة، يوم العرض. وقد خاب من حمل ظلما. إن لم تفك أسري من شهوات نفسي، ولم تنقذني من أوحال الدنيا، ولم تغمدني برحمتك، فكيف لي أن أفر إليك، وقد قلت (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين). كن بي رحيما، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

إلهي: أعرضت عن أصنامهم التي هم لها عاكفون، وأقبلت بوجهي عليك، فأقبل بوجهك العزيز علي، واجعلني أنظر إليه ببصيرتي. وأدم علي نورك حتى لا أضل وأشقى، أو تهوي بي الريح في مكان سحيق.

إلهي: طغى الماء أو كاد، ولست خبيرا بصنع الجارية العاصمة، فألهمني بناءها وإلا كنت من المغرقين، وارزقني براءة مثل براءة هود أخي عاد، إذ قال لهم: (واشهدوا أني برئ مما تشركون من

دونه) . وامنن علي ببينة منك تطمئن بها نفسي ، ويقوى بها عضدي ، وبشرني يا وهاب بهبة من عندك تسرني ، وترفعني بها ، واجعلني ممن قلت فيهم : (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) آمين .

إلهي ؛ إذا صح أن عبادا ممن ذاقوا حلاوة الانقطاع إليك ، شق عليهم الاشتغال بأمور تتعلق بمعيشتهم ودنياهم ، لا مفر لهم منها ، لما في ذلك من تشويش لصفو الأنس ، فكيف ستكون حالة عبدك إن دخل أهل النار النار . أتوسل إليك بما تحب أن يتوسل به إليك ، أن تثبتني وإياهم ، وتسكننا جنتك وتقر أعيننا برؤية وجهك الجميل .

إلهي ؛ هما نظرتان لا ثالثة لهما ؛ نظرة إلى الدنيا ، ونظرة إليك . فمن أسرته الأولى ، تحسر على الثانية يوم يكشف عنه غطاؤه . ومن منحته البصيرة ، وكان على نور منك ؛ كفي سحر الدنيا ، وعجل إليك لترضى . فيا من يجيب المضطر إذا دعاه ، أسألك بنورك الذي أضاءت به الكون ، أن تجعلني أحيا على بصيرة حتى ألقاك آمنا يوم الفزع الأكبر .

6- أحلام ورؤى :

وذات ليلة بينما انا اقرا سورة لقمان إذا بهاتف يهتف بداخلي، لماذا لا تتعلم الحكمة كما تعلمها لقمان الحكيم؟ اطلب من رب العزة أن يفيض عليك بشيء منها؟ فما كان مني إلا ان الححت الدعاء سائلا الله ان يرزقني علما تكون التقوى اساسه والحكمة تاجه.

ولما توفى الله نفسي في منامي تلك الليلة، زارني رجل يناهز السبعين في حلة جميلة يعلو الوقار محياه قد تعمم بعمامة بيضاء، فبادرته قائلا من انت؟ فاجابني، انا الحكيم الترمذي؟؟!!! فقلت، ما الذي جاء بك عندي؟ قال، أتيتك لأفسر لك سورة لقمان وأعلمك الحكمة؟؟!!! فعجبت لكلامه واستبشرت بقدومه خيرا فقلت في نفسي، لقد جاء على قدر، أو لعل الله قد بعثه إلي ليدلني على طريق الحكمة.

فبدات أرتل بعض آيات سورة لقمان ثم انطلق يفسرها تفسيرا باطنيا غريبا ذكرني بتفاسير الشيعة الباطنية... عندما أنهى تفسيره التفت إلي قائلا، أبشر يا عبد الله، لقد بدأت معراجك الروحي، وإنك الآن في السماء الثانية على قدم عيسى؟!! ثم ودعني قائلا، سأتركك الآن، لأن وقت الفجر قد حان فانتبهت من سباتي. لقد كان لكلامه وقع كبير في قلبي، دفعني إلى البحث بعد الخروج من الخلوة، في موضوع المعراج الروحي الذي مارسه بعض الصوفية وخاصة محيي الدين بن عربي. وفهمت من خلال هذا الموضوع ان المتصوفة يؤمنون بإمكانية المعراج الروحي إلى السماوات العلا، وأن كل سماء تعرج إليها روح الصوفي تناسب مقاما من المقامات، أو مستوى من مستويات الترقي الروحي.

واتضح لي بعد بضع سنوات اي زمن التوبة، أن هذه الرؤيا كانت من تلبيس الشيطان ومن إيحاءاته المضللة.

عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال، «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة، فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم وليصل، ولا يحدث بها الناس». (المنذري أبو الحسين، مختصر صحيح مسلم، باب إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب).

وانطلاقا من هذا الحديث يتضح ان رؤياي كانت من نوع حديث النفس. ثم إن الشيطان الذي جاءني في نومي، وهو متلبس بشخصية الحكيم الترمذي، أراد أن يكذب علي ويضلني بكلامه وإشاراته الماكرة، مدعيا انني قد بدات معراجي الروحي، وما إلى ذلك من الأوهام والترهات.

ومرة أخرى رأيت في منامي رجلا عرفني بنفسه قائلا، أنا محي الدين بن عربي جئت عندك كي أعلمك كلمات، ففرحت فرحا شديدا، وذلك لمكانة ابن عربي في نفسي وقتئذ، ولكوني كنت معجبا أيما إعجاب برسائله وفتوحاته، فنطق بعبارات ما أن بلغت مسامعي حتى طرب لها قلبي، لكني بعد الانتباه من النوم لم احتفظ منها سوى بالعبارة التالية، ،ولسان حالي، قول روحي، أنا لم أكن يوما هنا او في مكان.....

ولا يخفى على ذي بصيرة أن العبارة المذكورة لها علاقة متينة بنظرية وحدة الوجود الصوفية، ذلك أن ،الروح التي لم تكن يوما هنا أو في مكان،، على حد قول ابن عربي، هي روح مستغنية عن الحيز والمكان، وإذا كانت كذلك فهي غير حادثة ومخالفة للمحدثات...!!!

ولما أشرفت على نهاية الأسبوع الثاني للخلوة، أيقنت بأن ما يغمرني من السعادة الباطنية والطمأنينة، وما أسمعه من ألوان الذكر والموسيقى، وما أحس به من حلاوة روحية تجل عن الوصف، كل ذلك قد تحقق بعد الزهد في الدنيا والعزوف عن زينتها وزخرفها، وكذا بعد اعتزال الناس ولو لمدة يسيرة. فغدا عقلي مشغولا بالتفكير في الطريق المؤدية إلى الاحتفاظ بهذا الكنز الثمين والذخيرة الفريدة.

وبعد طول تفكير وإعمال عقل، تبين لي ان الخلاص يكمن في الاقتداء بأرباب السلوك من القوم، والسير على آثارهم. فعقدت العزم على الإعراض عن الزواج وعدم التفكير في موضوعه!! واعتبرته العائق الأول والرئيس الذي يحول دون

الممارسة الصوفية الحقة، ويمنع من الترقي في المقامات. وقلت في نفسي «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»، كيف يمكنني الجمع بين محبة الله والزواج والأولاد، ولو كان ذلك ممكنا لسبقني إليه أقطاب الصوفية وأبدالهم. فطفقت أتخيل الحياة الزوجية وكذا أعباءها من إشراف، ونفقة وسهر، وجسامة الحقوق الزوجية وثقل الميثاق الغليظ، وخلصت إلى أن هذا يتعارض كليا مع ما أنا فيه من السكينة والطمأنينة وراحة البال».

ولما تم لي الفصل في موضوع الزواج، انشغلت بموضوع العمل، فتساءلت مع نفسي، ما هو نوع العمل الذي ينتظرني بعد إنجاز رسالة الدبلوم؟ إنه التعليم بلا شك، وهب أني ظفرت بمنصب في كلية من كليات المغرب، ماذا عساي أدرس فيها؟. قد يسندون إلي تدريس بعض العلوم الإنسانية، خاصة علم الاجتماع أو الأنثرولوجيا الاجتماعية، لكن ما أصل هذه العلوم؟ وما غايتها؟ ومن هم واضعوها ومؤسسوها؟ أليس أربابها كفارا ملاحدة أمثال، أوجست كونت، وسبنسر ودوركايم؟ أليس غايتهم القصوى من هذه العلوم هي إقامة القطيعة التامة بين الإنسان وخالقه، من خلال المنهج العلماني اللاديني التي تنبني عليه هذه العلوم؟ أترضى لنفسك يا عبد الله أن تكون مفسدا في الأرض بتدريسك لهذه العلوم، وهب أنك توفقت في نقد وإظهار عيوب هذه العلوم، واقتصرت على تدريس ما قد تتضمنه من أفكار ونظريات عملية تفيد في فهم الواقع المغربي ودراسته، ألن يكون عملك في الكلية شاغلا لك عن الذكر والعبادة والخلوة؟ أتضمن لنفسك المكوث في عالم الطمأنينة والتحليق في فضاء الروح، والتنعم بنسيم الإشراقات والإلهامات؟

كان هذا الحوار الذاتي كفيلا بإعراضي عن التفكير في العمل، بل إن الأمر تعدى إلى أكثر من هذا، ذلك أنني كنت أفكر في عدم الرجوع إلى وطني البتة، واستبداله بتركيا أو الهند، حيث يمكنني أن أحيا حياة صوفية، بعيدا عن الأقارب والأحباب والأصدقاء. وبعد أن تمكنت هذه الأفكار الشاذة من عقلي واستحوذت

عليه، وصرت أحلق في أرجائها، وأتخيل الحياة الطليقة المفعمة بسكينة الروح وحلاوة الذكر والانقطاع إلى الله، بعد كل هذا تدخلت مشيئة الله، وحلت عنايته، ولطفت بعبده الذي أضحى مشلولا ومستهدفا، وانتشلته من أيدي الشياطين التي كانت على وشك الإلقاء به في أودية الهلاك والضلال.

ما الذي حصل يا ترى؟ لقد رأيت في منامي ليلة السابعة عشرة ذلك الشخص الطالب الذي عرض علي الغرفة التي أقمت فيها خلوتي، وهو يطرق الباب. فانتبهت من نومي حزينا خائفا من تحقق الرؤيا، لما في ذلك من إيقاف لخلوتي ونقض لعزلتي. وازداد قلقي لما رأيته في منامي ليلة الثامنة عشرة وهو يطرق الباب أيضا، ثم استسلمت لأمر الله لما تكررت الحالة في ليلة التاسعة عشرة، حيث رأيته جالسا في إحدى زوايا الغرفة وهو يحدثني عن المغرب وأحواله.... وفي منتصف النهار سمعت... دقات الباب، فلما فتحته وجدت الشخص ذاته. لقد جاء لأمر يتعلق بدراسته، ومكث معي بضعة أيام كانت كافية لتبديد بعض الغيوم التي تجسدت في تلك الأفكار الشاذة.



الفصل الخامس :

ما بعد الخلوة

1- السياحة في فضاء التصوف

2 - واردات وخواطر إيمانية

3- في أدب الواردات والخواطر

4- شرح نماذج من الواردات

5- واردات وخواطر إيمانية بعد التوبة

1- السياحة في فضاء التصوف والذكر

وبعد خروجي من الخلوة الصوفية، مكثت ما يقرب من ثمان سنوات سابحا في عالم التصوف، محلقا في فضاء الروح.

لقد أصبحت أضواء باريس كاسفة، وجمالها باهتا، ووجوه الفرنسيين شاحبة كأنها أشباح... لم أعد أنجذب لشيء. كل العالم من حولي صائر إلى الفناء. الحياة الباريسية الصاخبة أصبحت أمام عيني خامدة وفاقدة لكل معنى وروح. الناس يزدحمون عند أبواب عربات المترو، وأمام الحافلات الأتوبيس، وداخل المحلات التجارية، وازدحام في الحي اللاتيني، وعلى أرصفة الشوارع الشهيرة، (سان جرمان، سان ميشال، والإليزيه...) إنهم يتحركون مثل الحشرات، حين تغادر أوكارها أو تهم بالرجوع إليها.

لقد صرت أتعجب لهذه المخلوقات الكثيرة التعيسة، التي أنهكت قواها الآلات الصناعية، والوسائل التكنولوجية والإلكترونية، والرغبات الاستهلاكية اللامحدودة. حتى غدت حياتها موجهة توجيها محكما، ومبرمجة داخل برنامج مفاتحه وأزراره بيد الحكام والرأسماليين الكبار. وكثيرا ما كنت ألاحظ وأنا راكب في المترو أو الحافلة، بعض الفرنسيين من المسافرين وهم نائمون في مقاعدهم من شدة التعب وقلة النوم.

كما خفت في عيني بريق عناوين الإصدارات الجديدة في العلوم الإنسانية، والفلسفة، والتصوف، والتاريخ، والإسلاميات، حيث كنت مولعا من قبل بقراءة تلك العناوين وأنا أشعر بنشوة تنساب في كياني.

وغدت حدائق وبساتين باريس الفسيحة الخضراء المزهرة (لوكسوبورغ، بارك دوسو، فانسين، بولوني...) أهم الأماكن المحببة إلي، حيث كنت، وانا اتنعم برؤية الأشجار والأزهار والطيور، افضي إلى إلهي وحبيبي بأسرار قلبي، وأناجيه بما يختلج في باطني من معاني السعادة الباطنية والنعيم الروحي، كما كنت اكثر من الذكر تسبيحا وتهليلا واستغفارا. وأظل سابحا في فضاء هذا العالم الروحي اوقاتا طويلة متنقلا بين أرجاء تلك الحدائق الفيحاء.

وكثيرا ما كنت اتردد على مركز جورج بومبيدو الثقافي، ذلك المبنى الزجاجي الضخم الذي يشتمل أحد طوابقه على مكتبة فسيحة، تحتوي على مئات الآلاف من الكتب، والمجلات في شتى فنون العلم والمعرفة والآداب. ففي ركن من أركان هذه المكتبة، وهو ركن التصوف والفلسفة، كنت اقضي الساعات الطوال، اقرا بشغف بالغ تاليف مشاهير الصوفية وحكمهم، ونظرياتهم وتجاربهم الصوفية، ودراسات متنوعة حول التصوف ومذاهبه ومدارسه، ومعظم هذه التآليف والدراسات مكتوب باللغة الفرنسية، لكن يتخللها ما هو مكتوب بالعربية أو الإنجليزية.

واكثر ما كان يجذبني في هذه الكتابات، تجارب الصوفية وأحوالهم، فكنت اهيم في عوالمهم، واسبح في افلاكهم، وارتشف من كاس خمرتهم، حتى اشعر كانني واحد منهم. فاتخيل صورا لشخصياتهم، وأحركها داخل مخيلتي، وأرسم دروبا وأزقة، ومساجد وزوايا، وأماكن في دمشق، وحلب، وبغداد، ونيسابور، والقاهرة، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، ومورسية، تلك الأزقة والمساجد والأماكن التي كان يمر بها، أو يأوي إليها أهل التصوف. كما اتخيل كلام هؤلاء الصوفية ومعاملاتهم لعامة الناس، أو مناظراتهم لبعض الفقهاء أو لبعضهم البعض.

وعندما اغادر هذا المركز الثقافي تجدني، وأنا راكب في قطار المترو، او الحافلة (الأوتوبيس)، استحضر في مخيلتي وقائع واحداث وتجارب متعلقة بتلك الشخصيات الصوفية، وأشعر كان صدى كل ذلك يتردد في كياني.

وكم كان يحلو لي التطواف في شوارع باريس الطويلة والعريضة ذاكرا الله، مهللا ومسبحا ومستغفرا، وأنا أحرك بسبابتي وإبهامي حبات سبحة أخفيها في

جيب معطفي، مع الإمعان في التأمل والتدبر. لقد كان هذا الذكر غذاء لقلبي، ونعيما لروحي، أتلذذ به أعظم مما أتلذذ بالطعام والشراب والنظر، لأن اللذات الروحية القلبية أقوى وأتم من اللذات الجسمانية. ولطالما قرأت قبل تجربتي الصوفية عن الذكر وحقيقته، وفضائله وغاياته في كتب الصوفية وغيرهم، بيد أن العلم شيء والحال شيء آخر. فعلم المحبة، أو الخوف، أو الزهد، أو الإنابة، غير حصولها أو تذوقها. ذلك أن القلب إذا ذاق طعم المحبة الإلهية وباشرت شغافه، غلب عليه حالها، فزهدت النفس فيما سوى المحبوب، وأعرضت عن سائر المحبوبات. وهكذا لما ذقت حلاوة الذكر، وتنسمت عبيره، قذف بي في عالم روحاني يجل عند الوصف والنعت، ويند عن حدود العلم ورسومه. وأدبرت أعلام الهموم والغموم وأقبلت أعلام الفرح والسرور، فحيي القلب وتنزلت السكينة، وانجلت غيوم الوحشة بيني وبين ربي وتكاشفت بيني وبين العباد.

قال الفقيه العلامة محمد بن قيم الجوزية:

إن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون**﴾[الحشر: 19]. وإذا نسي العبد نفسه وأعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها، هلكت وفسدت ولابد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك، مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه وتشاغل عنه بغيره، وضيع مصالحه، فإنه يفسد ولا بد. هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها... وهذا هو الذي صار أمره كله فرطا، فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه... ولا سبيل إلى الأمان إلى ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به، وأن مايزال اللسان رطبا به وأن يتولى حياته التي لا غنى له عنها، وبمنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك... فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة

واعظم. فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟ هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح لابد.

وامّا هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته، إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة قال تعالى، ﴿**ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾[سورة طه][1].

ومن بركة ذكر الله سبحانه وتعالى، اني غدوت في مأمن من نسيانه، لا سيما وأنا في بلاد الغربة والفتنة، فكان الذكر ملجئي وحصني الحصين، اتنعم فيه بانشراح الصدر وانفساح القلب، متذوقا نعيم الأنس والرضا.

لقد لبثت ما شاء الله من السنوات متفيئا ظلال الحالات الروحية المتعاقبة بلا انقطاع، متنقلا بين جزر الخوف ومد الرجاء، لا اتوقف عن الذكر باللسان، أو القلب حتى لكانني اتنفس من خلاله. كما الفيتني أرتشف رحيق المنازل والأحوال، كالوجد والذوق والمحبة والشوق والزهد واليقين والذل والانكسار والعبودية إلخ. حتى أمسى كياني ثملا من شراب ذاك الرحيق، فصارت باريس الفاتنة كلما وقع بصرها على وجهي الشاحب وجسدي الميت، اعرضت عني قائلة، هذا جسد بلا روح، لأن روحي حلقت خارج أسوارها، وفوق سمائها.

وكان من ثمرة السياحة والجولان بين تلك المنازل والأحوال، أن من الله علي بواردات أو خواطر معرفية إيمانية، كانت تحضرني بطريقة فجائية حاملة معها اعلام المنازل وألوان الأحوال. ومن لطف الله بي أنني كنت اشعر برغبة ملحة في كتابتها والتعبير عنها، فور ورودها. فأبادر بذلك وأفرغ محتواها في كلمات وجمل

---

1 - محمد بن قيم الجوزية، "الوابل الصيب من الكلم الطيب" دار الكتب العلمية لبنان، 1419-1998. ص.47-48.

لا تتعدى بضعة أسطر. وإليك عزيزي القارئ نص تلك الواردات أو الخواطر المعرفية والإيمانية.

2- واردات وخواطر إيمانية

أثر الوارد الإيماني

إذا ورد وارد إيماني قلبك، فلا تستغرب لما يحدث في باطنك، لأن الزائر الذي حل بقلبك رسول من عند الكريم، ولا يمكن لهذا الرسول أن يحل بمكان مملوء بما يتعارض مع مهمته. ومن علامات صحة الوارد: أن يكره إليك ما استعذبته نفسك من العوائد، وأن يمنعك من الاشتغال بكثير من أمور الدنيا، ويزيدك تعلقا بمحبوبك ويشغلك به عن غيره.

لا طمأنينة إلا مع الله

إذا داعبت رياح الطمأنينة قلبك وذقت حلاوتها، فأكثر من الشكر والحمد، ثم احذر الله والزم المراقبة، لأن مكر الله شديد، والسلب بعد المنح ليس ببعيد. ولا تعتبر الطمأنينة غاية في ذاتها، ولا تقف معها، لأن وقوفك معها وقوف مع نفسك. ولا تكن أسير حلاوتها فتتعلق بها فتحجب عن الله لأن إلى ربك المنتهى.

حنين الروح إلى وطنها الأول

نطق لسان الحال بأمر يشير بأن لا سكون مع ما سوى الله، وأن العناية أدركت المؤمن وحالت بينه وبين الركون للسوى، وكلما مسه طائف من الشيطان ووقع في شهود النفس، تعكر صفو الحال واعتراه نوع من القلق، وشق عليه معاملة الأغيار. ثم لم يلبث أن

سكن ورد إلى الطمأنينة، لأن العناية شوشت عليه ذلك الركون، فلم تطمئن نفسه لغير الله، الذي هو آخذ بناصيتها، كما أن حنين الروح إلى وطنها الأول فاق كل حنين، ولا قرار لها مع غير خالقها.

فر إلى الله

لا تألف غيره لأنك مفارقه، ولا تتعلق بسواه لأنه فان. وروحك خالدة. واعلم أنك في سفر منه إليه، وقد أودعك الأمانة فضيعتها في الطريق لتزودك زاد المقيم، ونسيت أنك على سفر، فأمنت سقر، فلفحك لهيبها. فر إليه وتذكر ألفتك الأصلية، واسأل الله أن يردها إليك، وفي الحديث (اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري... وتلهمني بها رشدي وترد بها ألفتي).

اجعل الله أنيسك

العابدون السائحون غمرهم الحضور وتجردوا مما سواه، وإن باشروا زينة الدنيا فبه، فلا حركة ولا سكون لهم إلا به، فهم في الغرفات آمنون، كما أن أهل الجنة في نعيم، وليس يحجبهم ذلك عن التعلق بمحبوبهم ومشاهدة أنواره. اجعل الله أنيسك في الدنيا وتحقق به لعلك تكون من السابقين، وتجرد به عن غيره لأن كل ما سواه باطل[2]، واعلم أن مطالعة أهل الجنة لأنوار الله وعدم انشغالهم بنعيمه عنه متعلق بعدم انشغالهم عنه بزينة الدنيا، فاكشف غطاءك قبل أن يكشف عنك.

2- قال رسول الله ﷺ: "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد، الا كل ما خلا الله باطل". حديث صحيح، رواه مسلم عن ابي هريرة. وتكملة البيت الشعري قول الشاعر، وكل نعيم لا محالة زائل.

حب الله يكفيك حب ما سواه

إذا أحببت الله فإنك لن تستطيع أن تشغل بما سواه، وإلا شعرت بالعذاب والحيرة حتى ترد إليه. وإذا لم تشعر بذلك وقد أقبلت على غيره، فما صدقت في حبك له وكنت فقط تحت سيطرة الوهم، وحبك لغيره ينتهي بانتهائه ويبقى الذي لا يفنى سبحانه ما أعظمه.

استعن بالصبر والصلاة

الله أكبر، الله أعظم، الله أجل. أسلم وجهك لله، واستمطر رحمته بالصبر والصلاة، واصدق الله في ركوعك وسجودك، واخضع وتذلل واستحضر عبوديتك تأخذك المناجاة إلى عالم يجل عن الوصف، تتفيأ في ظلاله، فترنو بعين البصيرة إلى جماله وبهائه. أعظم به من مقام، واسعد بها من لحظات مع رب ودود، مقبل بوجهه الكريم على عبده الخاشع الذليل، واعلم أن حرصك على استحضار الخشوع في صلاتك إرضاء لربك، وطمعا في نعيم القرب وحلاوة المناجاة، لن يضاهي حرصه في الإقبال عليك والاستماع إلى دعواتك. ولئن جئته تمشي أتاك هرولة.

العهد والميثاق

إن الأرواح لما خوطبت في ميثاق الذر، (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، وشهدت بأن الله ربها، لم تكن تعرف بعد سجن الأشباح ولا مشاق الأمانة؛ (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه

كان ظلوما جهولا). ولما هبطت وسجنت، ووقعت في فخ النفس نسيت ثقل الأمانة فهلكت. ولو أنها حافظت على عهدها وميثاقها وظلت تعاين ببصيرتها ذاته، ولم تغفل عن ذلك طرفة عين لهان عليها ذلك.

أنت على الفطرة

أنت على الفطرة ما دمت على العهد، وإذا خنت الأمانة أوكلك الحق إلى نفسك. وهو يحول بين المرء وقلبه. فنورك من نور الفطرة، والله يهدي لنوره من يشاء. وسلامة دينك معلقة بسلامة فطرتك. وصفاء هاته مرهون باتباعك للشريعة. فلا ترغب بنفسك عن نهج نبيك، وليكن هواك تبعا لما جاء به، ولا تتخلف عنه فيفوتك الركب ويقتلك الظمأ في فلاة.

الجلال والجمال

إذا تجلت لك آية من آيات الحق في مظهر جمالي ولم ينكشف لك جلالها فما رأيت جمالها، وما استفدت من تلك الرؤية، إذ الجمال والجلال وجهان لحقيقة واحدة. فلا رجاء دون خوف، ولا خوف دون رجاء، (وادعوه خوفا وطمعا). وجماله يذكرك بجلاله، وجلاله يذكرك بجماله. ومن ثم فإنه ما تعرف إليك بجمال إلا وهو طالب منك أن تخافه؛ (هذا من فضل ربي ليبلوني آشكر أم أكفر)، وما تعرف إليك بجلال إلا وهو طالب منك أن ترجوه.

لا تقف مع الحسنة

لا تقف مع الحسنة فتحجب عنه، ولا تيأس عند صدور السيئة فتسيء الظن به. ولا تكن حيث الخوف الدائم والهيمان والدهشة،

وكن حيث شهود الجلال والجمال. حينئذ تفيض الحسنات عن ذاتك، ويسهل اجتناب السيئات لالتهاب نار الخشية في قلبك، (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

هما جلالان

هما جلالان ظاهري وباطني؛ والأول قد يدركه قلبك بواسطة حواسك، والثاني لا تراه إلا ببصيرتك إن أثمر الإدراك الأول. ويحدث الجلال الظاهري في القلب خشية قد تثبت وقد لا تثبت مع بقاء رسمك. ويحدث الثاني خشية ودهشة لا تمحيان إلا أن يشاء الله مع ذهاب رسمك. وفي الأصل ما ثم إلا جلال واحد والتقسيم اقتضته طبيعتك.

خوفان لا يجتمعان

خوفك منه يقهر خوفك مما سواه، ووجودك تحت سلطانه يجعل وجود ما سواه تحت سلطانك. والخوفان لا يجتمعان. والأول جوهري أصلي لتعلقه بالافتقار عين العبودية، والثاني عرضي طارئ. ويورث الأول الأمن والطمأنينة والنور، ويورث الثاني القلق والاضطراب والظلمة، (فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين)، ولو كنت مستحضرا ما كتب في اللوح المحفوظ ما خفت سواه فما أجهلك بربك.

خوفك منه حبلك إليه

إذا تمكن الخوف من قلبك ملكت التمييز، وتحركت الجوارح بالأمر، وسكنت بالنهي، وانمحى الاعتراض لضعف قوة النفس،

وتلاشى الفرح إلا برحمة الله، والحزن إلا للتقصير في العبادة، ووقعت الإجابة بالطلب أو دونه لحصول الانسجام بين ذاتك والكون ولصدق اضطرارك؛ (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) والاضطرار إليه عين الخوف منه وحبلك الموصل إليه.

القرآن يخاطبك

إن القرآن خطاب رباني موجه إليك، فافتح قلبك له، واخشع في تلاوته لعل الله يلهمك بعض أسراره. وإذا لم يحدث في باطنك خشوعا أو طمأنينة، فما وقع الخطاب على قلبك، وما وعت أذنك؛ (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله). فاحرص على أن تجعل رؤيتك بعين البصيرة للمشاهد الغيبية من جنة وملكوت، كرؤيتك بعين اليقين للمشاهد الدنيوية، لعل ذلك ينفعك في التقرب إلى الله.

مراعاة الوقت

لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك، فلا تخضع لزمان لكونه فانيا، ولكون روحك لن تتغير وليست فانية، وكنزك هو الحال الذي أنت فيه، وأمسك لن يعود، وغدك ليس بحاصل، وحياتك هذه حلم، والتي بعد الموت هي الحياة؛ (يا ليتني قدمت لحياتي). روحك فهمت الخطاب خارج حجاب الزمن، واستعصى عليها استحضاره تحت وطأته. احفظ وقتك، وتحقق بالله فيه، تسطع عليك شموس المعرفة، وتحقق مراد الله من خلقك، وتفز بفرصة العمر قبل فواتها. فهو الموصل إن تحققت به، والحجاب إن غفلت عنه، وساعتك التي أنت فيها.

اجعل الوقت مطية لك

لا تكن مطية وقتك، بل اجعله مطيتك. وأحكم قبضتك على لحظاتك، فقد تهلك بين فتحة عين وغمضتها. والكل في قبضته فاحذره لأنه القهار. وأطلق بصرك فيما حولك، وبصيرتك في باطنك دون أن تشغل بسواه، فتحجب عما يمكن أن تلهمه. فإن صابرت وراقبت وأحاطت بك العناية، وتم لك ذلك، رميت سلاحك وكسرت شراع سفينتك.

اغتنم وقتك

لا تطرد يومك بغدك، ولا تجعل نفسك تعانق ما ليس بحاصل، أو ما لم يحن بعد وقت حصوله. وإذا لم تفعل ذلك، كنت غائبا وضيعت إمدادات وقتك، وأسأت الأدب؛ لأن الله لم يخلق شيئا عبثا، وآياته لم تزل تتجلى لك. ورب حضور منك يثمر علما يورثك القرب، ورب غيبة منك تثمر جهلا يورثك البعد. وإذا أنعم عليك بالقرب لم تعد تشغل بما سيأتي، لأن الذي يملك الكنز لا يعبأ بالفلس، كما أن القرب منه ينفي كل الأبعاد، فلا أثر لماضي ولا لمستقبل، ومن تعلق بجمال الله وأسر بنوره حضر ولن يغيب.

احذر ريح الشرك

لا تجعل قلبك يسكن إلى علم وإن سما، أو عبادة وإن جلت، ولا تنسب ذلك إلى نفسك فتعصف بك ريح الشرك، وانسب إليه ما وصل منه إليك تكن شاكرا. وإن لم تفعل، استهوت نفسك ذلك، وتعلقت به وذلك عين المكر، لأن السمرء لا يبعث إلا على

ما مات عليه. والزم الخشية قلبك؛ لأن الله قد جعل التخويف أمنة من الأخذ بالمفاجأة وسببا للرحمة؛ (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون). والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

الذكر إرادتك

لم يجر الذكر على لسانك إلا وهو يريدك لحضرته، وإذا أرادك لذلك كنت في حفظه، وكان الذكر حرما آمنا لك، وأمست نار نفسك خامدة، وملكك مالك الملك زمامها، ألا ترى أنها تستسهل الأمر الصعب إذا حل بها حالة الذكر، في حين تستثقل أمرا هينا ولا تطيقه في حالة الغفلة. اصرف همك إليه واذكره مع أنفاسك لأنه لا يغفل عنك طرفة عين. وإذا حصل لك الأنس به وألفيت حلاوة الذكر، دل ذلك على الرضا، فقد جاء في الحديث القدسي "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني".

ذكرك له شرط ذكره لك

يا ابن آدم: ألم يأت عليك حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، ثم غدوت مذكورا، أو ليس من الشكر والإحسان أن تذكر من صيرك مذكورا، وباهى بك الملائكة وأسجدهم لك؟ لقد أنساك الشيطان ذكر ربك حسدا لما علم ذكر الخالق لك. فهو يطوف بك ويغويك وأنت لاتذكر ولا تبصر. حذار أن يصدق عليك قول الله، (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون). وحري بك إن أنت ظلمت نفسك أن تذكره وتستغفره فيكشف عنك ما ظلمت به نفسك. واعلم أن

ذكرك له شرط ذكره لك؛ (فاذكروني أذكركم)، وحبلك الموصل إليه. وأنك بالذكر موجود وبعدمه معدوم. وإنك بالبيان صرت إنسانا، (خلق الإنسان علمه البيان) وحياة قلبك بالذكرى، (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظّالمين). وتجنب من أعينهم في غطاء عن ذكره، كي لا تعمى بصيرتك. واعلم أن أجل أوصافك وصف العبودية، فأنت عبد الله بالذكر، وعبد الهوى بالغفلة، والسجين المعذب بالإعراض؛ (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا). فعليك بذكر التسبيح والتهليل، وذكر الدعاء والثناء، وذكر التفكر، والتدبر والتفقه، وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم عليك بالحسنات لأنهن (يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين).

لا تكن عبد الحظوظ

تدارك أمرك إذا فاتك حظ وبدا أساك، فإن قدمك ليست ثابتة. والحق يثبت وهو الحظ فاقرع بابه. كل الحظوظ مسطرة في اللوح المحفوظ، وانتقالك بينها عين القدرة، ويمحو الله ما يشاء ويثبت. خذ كتابك بيمينك، واثبت على الصراط المستقيم وصابر وراقب وحاسب، واجمع آمالك فيه، ملكت الحظوظ أو فاتتك. ثم انظر واختبر فإن حزنت نفسك لفوات حظ، أو انبسطت لحصوله حتى أساءت الأدب، فما صحت طمأنينتها. وإن استوى عندها الحصول والفوات فقد تحقق لها المراد.

اختر ما يبقى على ما يفنى

الحق ناظر إلى قلبك، ويقلبه، ويرفعك به ويخفضك، ولك ما نويت. رب عمل خلته جليلا وقد أبعدك. ورب عمل حجب عن

نفسك فلم تعره أي بال وقد قربك. ما طلب قط صورتك وما نظر إليها إذ هي فانية، بالصورة أنت مع نفسك، وإن تحققت بقلبك كان معك. واختر ما يبقى على ما يفنى، ورد الفرع إلى أصله والأمانة إلى أهلها، (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

صدرك لا يسع قلبين

يا عابر القنطرة: أنت مستخلف في الدنيا وجعلتها همك، وتشكو عذابها ولا كاشف لما ألمك، أما تدري أن صدرك لا يسع قلبين (ما جعل الله رجل من قلبين في جوفه)، ولا ينوء بحمل همين؟ وأن الهموم إذا تشعبت أوهنت، وإذا توحدت فيما خلقت له أسعدت وأشرقت، وأنبتت من كل زوج بهيج، فيا حبذا الأريج؛ أبشر بها من ريح طيبة تخالج صدرك، وتوقظ عزمك، وتطرد همك،وتستبدله بهم الآخرة، "وللآخرة خير لك من الأولى". واعلم أن هموم الدنيا لا تزول إلا بالعمل للآخرة، وأنك إن بعت دنياك بآخرتك ربحتهما جميعا. فاضرب هموم الدنيا بهم الآخرة، تسعد في الدارين وتأمن سخط الله يوم يبعث الثقلين.

فلك السجود

الكون محيط بك ومسخر لك لكونك خليفة ووارثا. آيات الكون تحيلك على المكون كالعبد يطلب سيده. وقضت الربوبية بالعبودية وسجد النجم والشجر (وكل في فلك يسبحون). وفلك السجود فلك كل موجود لا وجود له بذاته. فإن أبيت السجود أصبحت لا فلك لك، وتهت لكونك حدت عن أصلك. وإن لم تنقض الميثاق،

دمت سابحا في فلكك. ولا تخش بعد ذلك شيئا . فهو ممسك بك لأنه (يمسك السماوات والأرض أن تزولا) .

إليك في كل لحظة نداء

أنت ظاهر وباطن. وصورتك منقوش فيها ما شاء من آيات الظهور. وسرك ينطوي على ما شاء من آيات البطون. وإليك في كل لحظة نداء. ومنك الإعراض أو الإصغاء. ولك من آدميتك نداء مصحوب بحيرة أصلية لا تسكن بغير حواء (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها) . فبها كمال دينك، وبها تستعين على عبادته. ونظرة إليها قد تسكن الروع، وتقرب من المحبوب. فعليك بالمرأة الصالحة فهي مرآتك، وهي الركيزة، وردها إلى ضلعك ولا تكسره.

أولياء الله

إن لله عبادا أولياء وصالحين، أودعهم أسرارا واصطنعهم لنفسه، وأيدهم بروح منه، يسيحون ويجولون، يحملون نور الهداية كالرياح اللواقح. إن كنت على نور من ربك، اقتبست من نورهم. وإلا فقد ضرب بينك وبينهم بسور، وحجبوا عنك. ويكون سور نفسك أشد من سد ذي القرنين لا يندك إلا بوعد ربه. ولن تراه إلا كشفا فيشملك النور، أو عند كشف الغطاء فتفترسك الحسرة.

العقل المقيد

زمانك فصلك عن حقيقتك، وأخضع عقلك لمحسوساتك، فشق عليك أن تعقل ما لاتلمسه، وإن عقلته فلا أثر. فإن رمت الحق وجب كسر قيد العقل المقيد، لأن الأول (وسع كرسيه السماوات

والأرض)، لا محدود والثاني قيدته التجربة والنفس الأمارة. ولن تسطع عليك أنوار الحق، ما لم تتبرأ من القيد وتكسره، إذ نوره لا يرى إلا بنوره، (أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)، (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور). وإيمانك به هو الذي زينه في قلبك (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم). فلا تعبده بنفسك إذ عبادتك له رحمة منه، وقد تعرف إليك قبل أن تعرفه، وبه عرفته سبحانه ما أجوده.

نظرة الروح ونظرة النفس

روحك ثابتة وخالدة لكونها من النفخة، وساعة نفسك متغيرة. والمتعلقة بروحك ثابتة. إن نظرت بنفسك شاهدت التغير وأسرت، وإن نظرت بروحك أبصرت الثبات وأعرضت عن انعكاسات اللحظة وظلها . والمتغير ظل الثابت. والأول فاني والثاني أبدي. وحياتك الدنيوية ظل لتغيرها وعجلتها . ومد الظل وقبضه أسرع من ساعة .وأمر ربك في وجوده كلمح بالبصر .

أشرف أحوالك حال العبودية

تعلق بالعزيز لذلك، تشرق عليك أنوار المؤمن. فإن ذا الكبرياء صلى وأثنى عليك لذلك، وكبرياؤه لا تنازعه فيه وقد اقتضى عبوديتك، وأسرى سبحانه بحبيبه وأسماه عبدا . فأشرف أحوالك حال العبودية؛ إذ عزتك في تذللك، والأشياء في أضدادها . وأحسن أوقاتك وقت تجلي فاقتك بعد كمونها ، واستحضارك لجلاله بعد غفلتك عنه بسوء معاملتك لآيات جماله. ومن ثم فإياك

أن تشهد جماله بغير جلاله، وجلاله بغير جماله، أو أن تجعل له شريكا وهو لا يغفر أن يشرك به.

ابتغ إليه الوسيلة

لن تدرك ذاته ولو تجردت مما سواه، وذاتك وجدت بعد أن لم تكن فهي مفتقرة. وذاته كانت ولم تزل. وأنى لذات مفتقرة أن تدرك من لا يحده الزمان والمكان، بل خلقهما. فتعلق بصفاته، وتخلق بها، تشرق عليك أنواره. واعلم أنك لن تعبده ما لم ترتكز على أمر معنوي كالصلاة والذكر، أو محسوس كالبر بالوالدين والإحسان إلى الخلق. فابتغ إليه الوسيلة، ولا وسيلة لك إلا التقوى، والتقوى أن يجدك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك.

اقرأ كتابك

أنت الكتاب والقارئ والمقروء والشاهد والمشهود، وحامل الأمانة والمكلف بالخلافة، وكلك آذان وألسنة. وبك تخبر عنك. وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. ركز أحوالك، واستمع لتسبيح ذاتك، وصحح كتابك قبل أن ينشر، وتنطق جلودك فيخرس لسانك ويحد بصرك ولات حين مناص.

اختر خير الطلبين

الطلب طلبان: طلب بالاستعداد، وطلب بالنفس، والأول في حضور، والثاني في غياب، وحضورك في الأول يتجلى في كونك تتأدب ولا تطلب منه إلا ما يمليه عليك استعدادك، وقد هيأت باطنك لقبول ما يورده عليك. ثم إن الإجابة قد تحصل دون التلفظ بالسؤال، لكون حصولها وقع بالاستعداد ولو بغير شعور منك. إذ

من أصعب الأمور تحقق المؤمن باستعداده في كل وقت، وغيابك في الثاني هو وقوعك في أسر النفس الأمارة، وطلبك منه ما لا يرضاه لك، أو ما لست أهلا له، وليس من استعدادك، أو استعجالك الجواب؛ (خلق الإنسان من عجل)، ولما يحن استعدادك لقبوله، إذ أنك لا تنال إلا ما ينطق به استعدادك.

القصد المطلوب

صحح قصدك ولا تغفل عنه وأنت في شأن من شؤونك، واجمع مقاصدك في القصد المطلوب، فلا قصد لك إلا هو، ولا باب أنت داخل منه إلا بابه، واجعله أمام عينيك فتتوحد لك المقاصد؛ إذ شعورك بنظره إليك وإحساسك بالخوف والحياء إحساسا تلمسه في جوارحك، يجعل مقاصدك تفنى في القصد المطلوب، فتنال المرغوب. وبالخوف تموت حظوظ النفس، فينقشع الغمام، ويخلو لك السبيل، ويصبح الحبيب جليسك؛ "أنا جليس من ذكرني".

اختر خير الخاطرين

الخاطر خاطران: شيطاني وملائكي. والأول وهمي مجاله النفس الأمارة: (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا). والثاني حقيقي مجاله النفس المطمئنة. وإذا كنت في قبضة الأول، أنهكك الاختيار، وتلاعبت بك الخواطر. وإن كنت في حضرة الثاني، نطقت عن استعدادك وتحققت بوقتك، وانطفأت نار الاختيار، وأصبت ببرد التسليم، ويكون الحق سبحانه سمعك وبصرك، وفي الحديث القدسي (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده

التي يبطش بها، ورجلاه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت ولا بد له منه، وأنا أكره مساءته).

سد باب الخواطر الباطلة

إذا صح إيمانك بالحق سبحانه، رأيت الحق والعدل في كل شيء، وانتفى الباطل من باطنك ومن الوجود. وآخر باب أنت مطالب بسده؛ باب الخواطر الباطلة. وإذا لم تفعل كنت على خطر، والتبس عليك الأمر، وفاتتك لذة القرب وأنت لا تشعر. واعلم أن المجاهدة خير لك من الانسياق مع الخواطر الباطلة، وأن القناعة من الله حرمان.

لا تكن من الغافلين

كل ما وقع عليه بصرك في الكون وما لم يقع عليه يسبح ويسبح في فلك محيطه قبضة جلالية. وإذا تجلت لك أنوار الجلال وكنت في موطنه، قوي يقينك فسمعت ذلك التسبيح، وحد بصرك بنور بصيرتك، وأحالتك آيات الكون على المكون، فشغلت بمحبوبك عما سواه، وطوي زمانك، وقصرت المسافات، وغدا الآجل عاجلا والعسير سهلا.

اجعل الصدق مقامك لا مقالك

إذا طرقت بابه وقيل لك ارجع، فما صحت نيتك، وما طهرت سريرتك. ولو صدقت الله، لخرقت حجب نفسك، ولفتح لك

الباب. فاغسل قلبك بماء الصدق، وأحيه برحيق الإخلاص، فرب صدق لحظة خير من عبادة سنة. واجعل الصدق مقامك لامقالك، لأن الله ينظر إلى قلبك. فلا تشغل عنه بالدنيا وتدعي محبته، وإلا فما استحييت منه وما صدقت في افتقارك إليه، وقد طبع على قلبك وأنت لا تشعر[3].

ليكن مطلبك الفرقان

شرف العلم على قدر معلومه. والعلم علمان: علم تطلبه، وعلم يطلبك. والأول كسبي لا يخلو السعي وراءه من عناء، ولا تخلو طريقه من العثرات. وقد لا يشفي الغليل. والثاني وهبي (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا)، وطريقه مجاهدة النفس، ومحاسبتها، وثمرته الطمأنينة، لأنك قصدت معلومك وهو الله، بما يحب أن يقصد به (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).

دم على مخالفة أهوائك

إذا اشتهيت الكلام فاصمت، وإذا اشتهيت الصمت فتكلم. ودم على مخالفة أهوائك (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله). و"من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه". وإذا استوى عندك الفعل والترك، فاختر الثاني لأنه أسلم ومبطل للدعوى ومقو لخصلة الحياء. ولن تستحيي ما لم تتبرأ، فما ثم إلا مدبر واحد، فافتح قلبك له يكن تدبيرك به وإلا هلكت.

3- "إن الله لا ينظر إلى اجسادكم ولا إلى صوركن ولكن ينظر إلى قلوبكم" (رواه مسلم عن ابي هريرة).

نجاتك في صلاح مركبك

جسدك مركب لروحك، إن سلم من الخرق نجا من الغرق، وعانقت روحك الساحل الأبدي، وإلا كسرته أمواج الغواية، وقذفت بأشلائه. وصلاح مركبك معلق بسلامة حواسك؛ إذ بها يحصل العروج، وعليها يتوقف السفر. ولن تعبد الله ولن تشاهد آياته، ما لم تستقم جوارحك وما لم يخشع قلبك (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

لا تأمن مكر الله

إذا ركبت البحر وطغت أمواجك وتراءى لك شبح الهلاك، ثم ردتك العناية إلى البر، لاتظنن أن الماء لم يعد محيطا بك، واعلم ألا بر لك؛ إذ الكل بحر، والتقسيم أو جدته غفلتك، والساحل مركبك إذا لم ترفع له شراعا. وإذا رفعته غرق (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون).

لا تكن عبد الحال وكن عبد الله

لا تطلب منه الكرامات، ولا تتعلق بالكشف، فتحجب عنه وتحرم عين الرضا فتكون كأحد المقربين أهدى إليه ملك هدية فشغلته عن رؤية الملك وخدمته، فطرد من الحاشية. ولن يحبك الله ما لم تزهد في الدنيا وفي الحديث: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس). واعلم أن طلب الأحوال والمقامات قدح في الإخلاص، فلا تكن عبد الحال لأنه لا يدوم، وإن دام فهو حجاب. وكن عبد الله ترفع عنك الحجب.

من الكون إلى اليقين

إذا أحالك الكون على المكون وخشعت ذاتك، كانت رؤيتك و استماعك بالحقيقة، وتحققت باليقين واطمأن قلبك. وإذا وقفت مع الكون، قوي ظمأك، وفقدت الخلافة، وحالت طينتك دون إدراك الحقيقة. واليقين يورث الحياء والخوف، وإلا فأنت تضرب في حديد بارد. ألم تر أن يوسف عليه السلام لما رأى برهان ربه، خاف ولم يقدم على ما هم به. ولكل شيء ظاهر وباطن. ولن تدرك الباطن إلا بعينك الباطنة، فاجتهد أن تكون على بصيرة من ربك.

لا بد لك من معبود

انظر إلى الممكنات باعتبار ضرورتها، وانظر إلى الواجب بذاته باعتبار كماله. ولا تعامل الضروري بأحسن أو بنفس معاملتك للكمالي فتجلب غضب الله عليك، لأن الكمال لله وحده فنزهه، واجعله نصب عينيك. واعلم أن تقديسك الكمال جزء من فطرتك. وأنت إن لم تكن ترى ذلك في خالقك، رأيته فيما توهمه لك نفسك. واعلم أنه لا بد لك من معبود فليكن الله، وإلا عبدت هواك (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون).

لباس التقوى

لباس التقوى جمالك، فلا تترك الشيطان يسلبك إياه فتفقد كرامة الاستخلاف، ثم يجردك عن إنسانيتك، ويزج بك في حمأة البهيمية، فيتحقق مراده فيك، ويسخر منك هو وقبيله. ولو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره، ولو شمرت فكرك فيما

خلقت له، لما اشتد حرصك على الدنيا ، ولما أتعبت نفسك فيما سيفنى.

اتخذ تقوى الله تجارة

خسر بيعك وبارت تجارتك، واستحالت سرابا . وأقفرت جنتك، ولما تنبت شيئا . وما زلت تلهث حتى بلغ منك الجهد مبلغه، وتقطعت أوصالك، ونسيت أن "اليوم الرهان وغدا السباق والجنة الغاية" وأن "من في الدنيا ضيف وما في يده عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة" . فاتخذ تقوى الله، تجارة تأتك الأرباح وتحمد البضاعة. وحينئذ تلين الجوارح وتخشع، وتستخشن الجنوب ليونة المضجع، ويسجد القلب، ويهجم اليقين، فتندحر جيوش النفس الأمارة، وتغدو الآخرة أقرب إليك من حبل الوريد.

سكرة الموت

شمس نفسك أشرقت يداعبها نسيم الأمل الطويل، وشمس الدنيا كسفت وهي على أطراف النخيل. والموت يقين لا شك فيه، غدا عندك شكا لا يقين فيه. لكن سكرته تبيد الغمام، وتحضر ما كنت منه تحيد. وتضع حدا لكل الآمال، وتلقي بك بين يدي من يغني ويعيد.

بين زمن روحك وزمن نفسك

إذا تدبرت وعيد الله بصدق ويقين، انبعثت من قلبك نيران الخشية، فأحرق لهيبها حجب الهوى والغفلة، فاتسعت دائرة عقلك، وأضحى زمانك في قبضتك، وصرت حاضرا بعد أن كنت غائبا بنفسك الأمارة عن نفسك اللوامة. وإذا كنت أسيرا في قبضة شهواتك، فكرت بنفسك الأمارة، وكنت في ظلمات بعضها فوق

بعض، لا ترى وعيناك مفتوحتان، وضاق زمن روحك، واتسع زمن نفسك. وقد تغيب بنفسك عن روحك، فيغمى عليك إلى أن تفيق في قبرك.

أقم قيامتك

الأمر أعظم مما تتصور، والخطب أجل مما قد يخطر على بالك، والفضاء ضاق بما رحب، وعجلة الزمان أوشكت على التوقف، بعد أن أباد الأمم والقرون، تعاقب الحركة والسكون. وليل نهارك قد جن عليك ولما تعاين نجومه. أقم قيامتك قبل قيامها، فهول القيامة أشد ما ينتظر، والساعة أدهى وأمر.

لا عذر لك

لا قلب لك، لا سمع لك، لابصر لك فأنى لك بالخشوع، وأنى لك بالإنابة. بل كيف يتجافى جنبك عن مضجعك. هيهات هيهات؛ أتروم الظفر بحلاوة الإيمان ولما تنفطم نفسك عن شهواتك. كيف بك وقد كشف عنك غطاؤك وأنت على هذه الحال. لا عذر لك يا ابن آدم، فيداك أوكتا وفوك نفخ.

فر من عذابه إلى نعيمه

تجنب شجرة الزقوم، والحميم والسموم، وتذكر سكرات الموت وبلوغ الروح الحلقوم، ولوعة الفراق ووطأته، وظلمة القبر ووحشته، وهول الموقف وشدته. واستحضر نعيم الجنة وجمالها، وانسياب أنهارها وعيونها، وطواف غلمانها وولدانها، وتربع أهلها على سرر متقابلين، وتلذذهم برؤية رب العالمين. عساك تحظى

بما يوقظ قلبك، ويشغل همك ويقوي عزمك. ولن تشقى بعدها أبدا، بلى وقد صرت حرا وللرحمان عبدا.

مد يمناك إلى باب الجنة

الجنة أقرب من أن ترحل إليها، وحورها فوق فرشها وبأبواب خيامها أشد انتظارا لك من أم لابنها المفقود. والمهر؛ طول التذلل والتجافي في جوف الليل (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، والمحافظة على العهد والميثاق، بعدها يطيب التلاقي، وينعم كل خل بخليله، وتقر أعينهم بعطايا مليكهم، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. ما أقصر عمر الدنيا مع أن الأمر أسرع مما أنت فيه، ولا فناء للآخرة وأنت تعض بنواجدك على الفاني. بئس ما عضت نواجدك وثناياك، وبئس وخاب المسعى مسعاك.

3- في أدب الواردات والخواطر

وبعد، عزيزي القارئ، تلك هي الخواطر أو الواردات الإيمانية والمعرفية التي دونتها في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي، عندما كنت أحيا تجربتي الصوفية في مدينة باريس.

إن هذه الواردات عبارة عن خطاب تربوي روحي عميق موجه إلى ذات كانت تعاني تجربة صوفية، تأمل من خلالها الظفر بالإصلاح والتزكية والاستقامة. ومما أثار انتباهي فيما يتعلق بطبيعة هذه الواردات، انها كانت تحضرني عقب الشعور بحال من الأحوال الروحية، أو عقب لحظة تأملية في عظمة الله وجلاله، أو اثناء قراءة القرآن مع التدبر واستحضار الوعد والوعيد. فكما ان الحال معنى روحي يرد على القلب من غير اكتساب، أو يهجم عليه هجوما مباغتا، كذلك الشان في الوارد الإيماني المعرفي، فإن المخاطب او المرسل إليه يتلقاه دون سابق إعلام.

وكثيرا ما يكون الوارد أعظم قوة من متلقيه، فيأخذه عن نفسه، وقد يغيب عنها وعن غيره، ويحدث في باطنه من الآثار ما يجعله يشعر بالغربة النفسية، كأنه يتمثل بصدق وحرارة قول الرسولﷺ، **"كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل...."**[4]. كما يحس بحقارة الدنيا وخستها، فيزهد فيها ويستقبح العوائد والتقاليد والعادات الاجتماعية المقيدة للإرادة، والمانعة من التحرر والانطلاق.

ولم يحصل قط أنني كتبت واردا واحدا خارج وطأة الحال ومناخه، أو كتبته بطريقة إرادية محضة، أعني أنني سطرته دون أن أتلقى معناه عقب الوقوع تحت هيمنة الحال.

وبعبارة أخرى، فإن المعرفة الإيمانية التي أسفر عنها الوارد، استفدتها من الحال الروحي الطارئ. وقد حصل عندي اليقين من خلال هذه التجربة الصوفية، أن المعرفة المستفادة من الأحوال الروحية تتصف بكونها ذوقية، وأن المعرفة كلما كانت ذوقية، كانت أرسخ وأثبت وأعمق في القلب. كما أن أثرها في السلوك لا يحتاج إلى دليل. ولهذا قال النبيﷺ، **"ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمدﷺ رسولا"**[5]. فأخبر أن للإيمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب. قال الفقيه العلامة محمد قيم الجوزية، "فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، فيذوق طعمه ويجد حلاوته والله الموفق"[6]. وقال أيضا، **"وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن ادعاه"**[7].

4- رواه البخاري.

5- حديث حسن.

6- مدارج السالكين، ج 3، ص .101.

7- مدارج السالكين، ج 3، ص. 104.

والخلاصة أن المعاني السنية والأحوال الباطنية الشريفة، التي لا تفارق قلوب الصادقين من المؤمنين في كل زمان، والتي يتذوقونها ويجدون حلاوتها في قلوبهم، هي التي تمدهم بإذن الله، بالمعارف السامية والأفكار الطاهرة والخواطر والواردات الرحمانية الرقيقة. ولما سئل ابن مسعود عن العلم، أجاب، إنما العلم الخشية، إشارة إلى أن العلم الحقيقي والمثمر هو المقرون بالخشية. والخشية حال باطني مقرها القلب، يحس بها المؤمن الخائف ويتذوق نعيمها وأثرها في قلبه. ومن خلالها يفهم أشياء كثيرة، ويدرك أمورا تستعصي على القلوب الغافلة ولو كان أصحابها من المشتغلين بالعلم والمعرفة.

ومن الأمور التي كثيرا ما تحدث في قلب من يعانيها معرفة ذوقية أمر الموت. ذلك أن الإنسان المريض مثلا، والذي أشرف على الهلاك وأيقن بدنو أجله، تعتريه حالات نفسية كالخوف والقلق والحزن، أو الإحساس بأن الدنيا لا قيمة لها. وكذلك الشخص الذي فقد أخا له أو إبنا، أو أحد أقربائه الأعزاء. إن هذا الشخص الجريح المتألم قد يلهم من المعارف الباطنية المتعلقة بحقيقة الدنيا وقلة وزنها عند الله، وبعالم الآخرة والقبر والحشر، ما قد يغير مجرى حياته ويدفعه إلى التوبة إن كان غافلا، وإلى محبة الله وذكره.

إن هذه المعرفة الذوقية التي استفادها من حال الحزن الطارئ، بسبب موت القريب لا تقدر بثمن، وقلما يجنيها الإنسان من المناقشة في موضوع الموت، أو مطالعة أخبار الموتى والمحتضرين، وإنما يجنيها من المعاناة، ولذا قال الرسول ﷺ، **«اكثروا ذكر هادم اللذات»**، كما أمرنا بزيارة القبور. فالحصول على هذه المعرفة ليس طريقه العقل فقط، من خلال المطالعة، أو التأمل والتفكر أو الحوار، وإنما طريقه المجاهدة والمحاسبة، والمعاناة مع الصدق والإخلاص.

ومن هنا كان هذا الواعظ القلبي من أنفع ما يتحلى به المؤمن المحاسب لنفسه. إن هذا الواعظ الموجود في قلب المؤمن يشبه كائنا حيا عاقلا، يذكر صاحبه كي يحول بينه وبين الغفلة، وهو يقوم بهذه المهمة بطريقة مستمرة

وتلقائية، إنها رقابة باطنية حصلت نتيجة المجاهدة والرياضة الروحية، ومن استحضار الخشية والخوف من الله. ومما لا شك فيه أن هذا الواعظ يثمر في قلب صاحبه معرفة إيمانية ذوقية تضيء له طريق الهداية إلى أن يلقى الله تعالى.

،وهذا الذوق، أصحابه فيه يتفاوتون، فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين. لا يحبون شيئًا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجعون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى، فقد فنيت عندهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبه ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، وهو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب. وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب وهو قلب القرآن الذي تدور عليه رحاه. والله سبحانه أعلم،[8].

ولا تخلو كتب الفكر والأدب قديما وحديثا من ألوان الواردات والخواطر، وكلما كان الفكر والأدب ينهلان من جوهر الدين، ويرتكزان على القرآن والسنة الصحيحة، كان فضاؤهما مجالا لورود الواردات والخواطر الإيمانية، والعكس صحيح؛ أي إذا كان الفكر والأدب لا يسترشدان بالكتاب والسنة ولا يلتزمان بقواعدهما ومبادئهما، ولا يحتكمان إلى نصوصهما، تسربت إليهما الأفكار والمعاني ذات الصلة بالخواطر والواردات الفلسفية أو النفسية. ومثال النوع الأول؛ مؤلفات الفقه وأصوله، ورسائل العقيدة الصحيحة، وكتب الآداب وتربية النفس والأخلاق الدينية، وأشعار الجهاد والحكم والمواعظ. ومثال النوع الثاني؛ مؤلفات الفلسفة الميتافيزيقية وعلم الكلام والتصوف الفلسفي؛ وحدة الوجود والحلول والاتحاد، والطرقي، والدواوين الشعرية المشتملة على بعض أنواع

8- احمد بن تيمية، الفتاوى، مجلد 10، ص. 335.

الهجاء أو الأمداح الكاذبة أو الغزليات. فهذا الصنف الثاني من الفكر والأدب قلما يسلم أصحابه من الإيحاءات النفسية والشيطانية، التي تكون من وراء الخواطر والواردات الضالة والمضلة.

وإذا علمنا بأن نظريات متفلسفة المسلمين، واقطاب الكلام والتصوف الفلسفي، لها علاقة وطيدة بالفكر اليوناني الوثني، وبالفكر الإشراقي والمسيحي، وبالمذاهب الفلسفية والعقائد المختلفة، التي كانت منتشرة في ربوع الشام وفارس والهند قبيل مجئ الإسلام، تبين لنا خلو هذا الفكر من الخواطر والواردات الإيمانية، وإن وجدت فهي قليلة. والخلاصة أن نوعية الخواطر والواردات مرتبطة بطبيعة المحل القابل لتنزلها وورودها، وكل إناء يرشح بما فيه. ولقد أحسن محمد بن قيم الجوزية عندما قال، ،مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها،[9].

وهناك خواطر وواردات نفسية وتربوية وإيمانية، مثل ما ورد في رسالة "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" لأبي محمد علي بن حزم، أو في كتاب "تفصيل النشاتين وتحصيل السعادتين" للراغب الأصفهاني، أو ما سطره عبد الرحمن ابن الجوزي في كتابه "صيد الخاطر"، أو ما جادت به قريحة شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة "التحفة العراقية في الأعمال القلبية"[10] وغيرها من رسائله، أو ما ورد في كتابي "الفوائد" و"بدائع الفوائد" لمحمد بن قيم الجوزية إلى غير ذلك من الكتب والرسائل.

وهناك خواطر وواردات صوفية، وهي الأفكار والهواجس التي تلازم قلب المريد أو السالك خلال تجربته الصوفية. وهي نوعان، خواطر ملائكية وخواطر

9- محمد بن قيم الجوزية "الفوائد"، دار الكتب العلمية، بيروت 1996، ص. 193.

10- انظر "مجموع فتاوى ابن تيمية"، ج 10، (علم السلوك).

شيطانية. ويستندون في هذا التقسيم إلى الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود مرفوعا، «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)»[11].

ولقد أفرد الصوفية لموضوع الخواطر والواردات، جزءا هاما من كتاباتهم، بل تجد لبعضهم مؤلفات ورسائل لا تعدو أن تكون مجرد خواطر شخصية مكتوبة بلغة الذوق وأسلوب الإشارة. والكلام الصوفي إما أن يكون وصفا للأحوال الداخلية المتعلقة بالسلوك الذاتي للمتصوف، أو كلاما عن الأذواق والإشراقات والحقائق العرفانية، أو صياغة للأحزاب والأوراد، أو نصوصا تعليمية وتربوية تبين طريق السلوك الصوفي والغاية من التصوف. وهذه الأصناف الأربعة من الكلام الصوفي تندرج في إطار الخواطر الشخصية للمتصوف أو تتعلق بها تعلقا وثيقا.

ويعلل الصوفية اشتباه الخواطر بأربعة أشياء وهي، إما ضعف اليقين، أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى، أو محبة الدنيا والتماس الجاه، وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس، زاعمين أن العبد الذي عصم من هذه الأشياء الأربعة يستطيع التمييز بين الخواطر والواردات الملائكية والخواطر والواردات الشيطانية، أو بين لمة الملك ولمة الشيطان. غير أن العصمة المطلقة في هذه الأمور الأربعة لا تصح في حق العباد اللهم إذا استثنينا الرسل والأنبياء.

ثم إن أقطاب الصوفية وأعلامهم الكبار، كالحكيم الترمذي، ومحي الدين ابن عربي، وابن سبعين وغيرهم، لم يسلموا في حياتهم من الوقوع في هذه المعضلة، وإن ادعوا خلاف ذلك، وكتاباتهم المشحونة بالخواطر، والمكاشفات، والإلهامات المختلفة، خير دليل على هذه الحقيقة. ورغم أنهم أشاروا إلى أن المريد

11- اخرجه الترمذي في جامعه.

أو السالك، أو المتصوف ينبغي له أن يتثبت من مصدر الخاطر، ويعرضه على الكتاب والسنة قبل أن يمضيه، فإنهم لم يلتزموا بما اشترطوه على أنفسهم، ولم يتقيدوا ببعض القواعد الصوفية التي وضعوها وبينوا فيها أن طريق التصوف مقيد بالتفقه في الدين، وأصحابه مسترشدون بأثر سيد المرسلين.

يقول العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، «إن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين فلا يثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي. وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها... والقته في الأسر الطويل. وكما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية، هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان، والخشية والمحبة والإنابة.. وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها، أثمرت له كل فعل جميل وملأت قلبه من الخيرات واستعملت جوارحه في الطاعات. ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك، عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجل عملها، وهذا نافع لصاحبه بشرطين، أحدهما ألا يترك به واجبا ولا سنة، الثاني، ألا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان، والمحبة، والخشية، فيفرغ قلبه من تلك الخواطر، ويعمره بأضدادها وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما كان خاسرا.. ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على إلقاء الخواطر وإزالتها جملة، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات، فظنوها تحقيقا وفتحا رحمانيا وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات شيطانية والميزان هو الكتاب»[12].

لكن المتصوفة الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث، أمثال بشر الحافي، والفضيل بن عياض، وأبي القاسم الجنيد، والحارث المحاسبي، وغيرهم، خلفوا أقوالا ووصايا وحكما تدور حول الزهد، والإخلاص، وتزكية النفس، وأمراض القلوب، وعلاجها، وأحوال القيامة والآخرة، وهي في غالبها لا

12- محمد بن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار الكتاب العربي، بيروت، ص222.

تتنافي مع الكتاب والسنة، لأن التصوف في هذه المرحلة، لم يكن بعد قد تسربت إليه عناصر الفلسفة اليونانية، أو بعض المبادئ من عقائد المسيحيين والفرس والهنود وفلسفاتهم.كما أن ظاهرة الطرقية والزوايا ونظام المشيخة وما إلى ذلك مما يتعلق بالمذهبية الصوفية، كل هذا لم يكن معروفا في تلك المرحلة. وهكذا فإن الخواطر والواردات التي بثها أولئك المتصوفة الأوائل في أحاديثهم ومواعظهم وكتاباتهم، تتميز بطابع الزهد والورع والخوف وإخلاص العمل لله والاستعداد ليوم الرحيل، ولا أثر فيها لفكر أفلاطوني أو فلسفة زرادشتية. ولعل الحارث المحاسبي هو خير من مثل هذه المرحلة من الفكر الصوفي، وذلك من خلال كتبه ورسائله المشهورة، مثل كتاب "الوصايا"، وكتاب "الرعاية لحقوق الله"، و"رسالة المسترشدين"، ورسالة "التوهم".

وهب أن هذا الفن من الكتابة خاص بالصوفية، فلا يعقل أن نرفض كل ما يأتي به المخالف، وإنما نقبل ما عنده من حسنات ونرد ما عنده من سيئات، وهذا عين الإنصاف وعليه درج من سلف من العلماء. وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية: ،فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة.. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، واكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله،.

،وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى؛ كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد؛ ولهذا وجب عليهم جميعا أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسولهﷺ، وأن يزنوا مواجيدهم ومشاهداتهم وآرائهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله،[13].

والجدير بالذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية يتحدث هنا عن المتصوفة الذين كانوا لا يؤولون نصوص الكتاب والسنة ولا يخالفونهما، بل كانوا حريصين على التقيد بهما

13- المرجع السابق، ص. 65.

والانضباط بأحكامهما، وإنما تصدر منهم أخطاء لغلبة الوجد، أو لنقص في العلم بالحديث أو ما يشبه ذلك.أما ما سواهم من الحلوليين والقائلين بوحدة الوجود، أو المبتدعة من أتباع الطرق والزوايا من الذين يقدسون شيوخهم، فإن موقف ابن تيمية منهم معروف وأقواله وانتقاداته لهم مشهورة ومبثوثة في كتبه ورسائله.

ويقول أيضا: «وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفا، وهي خيالات غير مطابقة وأوهام غير صادقة»[14].

وكتاب "المدهش" لأبي الفرج ابن الجوزي، زاخر بأفكار وأقوال من جنس الخواطر والواردات الإيمانية، وبما له صلة بالزهد والرقائق، وكذا كتاباه "صفة الصفوة" و"صيد الخاطر". ولا تخلو بعض رسائل ابن تيمية وكتبه من أفكار وإشارات مماثلة، وحدا حدوهما تلميذه ابن قيم الجوزية خاصة في كتابيه "مدارج السالكين" و"الفوائد". وهكذا لم يمض قرن من قرون التاريخ الإسلامي إلا وتالقت فيه كتابات متميزة لها علاقة بهذا الفن الأدبي الديني. ولا بأس من الاستشهاد بمقتطفات من بعض الكتب المشار إليها.

يقول أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه "المدهش":

«يا معدوما في الأمس، فانيا في الغد، عاجزا في الحال، من أنت حتى تغتر بسلامتك وتنسى حتفك وأملك بين يديك وأجلك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك.. يا قلبا مشتتا قل نظيره، كم هذا الهوى؟ ولكم هوى أسيره؟ ستعرف خبرك يوم عتابي وسؤالي، وستقول عند الحساب مالي ومالي.. لو أثر فيك وعظي ومقالي لكنت لحر الحسرات على حر المقالي»[15].

14- المرجع نفسه، ص. 339.

15- أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي "المدهش"، بيروت 1973، ص.323.

وقال أيضا، ,إذا هبت رياح المواعظ أثارت من قلوب المتيقظين غيم الغم على ما سلف، وساقته إلى بلد الطبع المنحرف برعد الوعيد وبرق الخشية، فتترقى دموع الأحزان من بحر قعر القلب إلى أوج الرأس، فتسيل في ميازيب الشؤون على سطوح الوجنات، فإذا أعشب السر اهتز فرحا بالإنابة،[16].

وقال كذلك، ,كم أسرعت فيما يؤذي دينك ودأبت؟ كم خرقت ثوب إيمانك وما رأبت؟ كم فرقت شعب قلبك وما شعبت؟ كم فاتك من خير وما اكتأبت؟ يا كاسب الخطايا بئس ما كسبت، جمعت جملة من حسناتك ثم اغتبت.. تعلم أن مولاك يراك وما تأدبت، تؤثر ما يفنى على ما يبقى، ما أصبت، تصبح تائبا فإذا أمسيت كذبت، تمشي مع اليقين فإذا قاربت انقلبت، تعمر ما لا يبقى وما يبقى خربت...،[17].

وفي كتابه "صفة الصفوة" قال هذا العالم الجليل، ,رد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى إجمام القلب بقلة الخلطاء، وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، والتمس باب الحزن بدوام الفكرة، والتمس وجوه الفكرة في الخلوات، وتحرز من إبليس بمخالفة هواك، وتزين لله بالإخلاص والصدق في الأعمال، وتعرض للعفو بالحياء منه والمراقبة، واستجلب زيادة النعم بالشكر، واستدم النعم بخوف زوالها، ولا عمل كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كرد الغضب، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغار الدنيا..،[18].

وقال محمد بن قيم الجوزية، ,من فقد أنسه بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين

16- المرجع نفسه، ص.451.

17- المرجع نفسه، ص.470.

18- ابو الفرج جمال الدين بن الجوزي، "صفة الصفوة"، دار الكتب العلمية، بيروت 1999، ج2، ص.195.

الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود. ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله. ومن كان فتحه في الخلوة[19] لم يكن مزيده إلا منها. ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم. ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث اقامه وفي أي شئ استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس. فاشرف الأحوال الا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه. فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه»[20].

وقال أيضا: «إذا أراد القدر شخصا بذر في أرض قلبه بذر التوفيق، ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة، ثم اقام عليه بأطوار المراقبة، واستخدم له حارس العلم، فإذا الزرع قائم على سوقه. وإذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها»[21].

وقال كذلك: «... وإذا عرف هذا، فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان، قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية، وجعلوها دابهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال.

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم، وعكوفها على الله وحده، والجمعية عليه، وحفظ الخواطر والإرادات معه. وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب، من تصحيح المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل،

19 - ألفت انتباه القارئ إلى أن الخلوة التي يتحدث عنها محمد ابن قيم الجوزية لا علاقة لها بالخلوة الأربعينية أو غيرها من الخلوات البدعية التي يمارسها كثير من الصوفية، حيث يختلون بانفسهم في بيوت أو كهوف، ويكثرون من الذكر البدعي ويخضعون لنظام تعبدي وسلوكي غريب يلزمهم بهجر واعتزال الأهل والأولاد وجميع الناس وعدم حضور صلاة الجماعة « إلى غير ذلك من البدع والضلالات التي ترجع في اصلها إلى إيحاءات شيطانية.

20 - محمد بن قيم الجوزية، "الفوائد"، دار الكتب العلمية، بيروت 1996، ص. 50.

21 - المرجع نفسه، ص.59.

والإنابة، وراوا ان ايسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله، احب إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس، أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل، لم يستبدل به شيئا سواه البتة، إلا أن يجئ الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد»[22].

يتبين مما سبق ذكره، أن فن الخواطر والواردات لم ينفرد به الصوفية كما قد يتوهم البعض، وإن كان الصوفية أكثر الناس اشتغالا به. كما أن الخواطر والواردات التي دونها غير الصوفية أمثال العلماء المذكورين آنفا، تتميز بكونها خالية من الأفكار الشاذة المتعلقة بوحدة الوجود، أو الحلول أو الفناء، وما إلى ذلك من الشطحات التي تزخر بها خواطر وواردات الصوفية المتفلسفة، أو صوفية الطرق والزوايا.

4- شرح نماذج من الواردات

ولمزيد من التوضيح في العلاقة بين الذوق الإيماني والمعرفة، سأحاول بإذن الله شرح نماذج من الواردات وتحليلها مستهلا بثلاثة واردات متعلقة بمفهوم الوقت،

مراعاة الوقت

لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك، فلا تخضع لزمان لكونه فانيا، ولكون روحك لن تتغير وليست فانية. وكذلك هو الحال الذي أنت فيه، وأمسك لن يعود، وغدك ليس بحاصل، وحياتك هذه حلم، والتي بعد الموت هي الحياة؛ (يا ليتني قدمت لحياتي). روحك فهمت الخطاب خارج حجاب الزمن؛ (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، واستعصى عليها استحضاره تحت

22- المرجع نفسه، ص.160.

وطأته. احفظ وقتك وتحقق بالله فيه، تسطع عليك شموس المعرفة وتحقق مراد الله من خلقك، وتفز بفرصة العمر قبل فواتها. فهو الموصل إن تحققت به، والحجاب إن غفلت عنه وساعتك التي أنت فيها.

لا تكن مطية وقتك، بل اجعله مطيتك، وأحكم قبضتك على لحظاتك، فقد تهلك بين فتحة عين وغمضتها، والكل في قبضته فاحذره لأنه القهار. وأطلق بصرك فيما حولك، وبصيرتك في باطنك، دون أن تشغل بسواه فتحجب عما يمكن أن تلهمه. فإن صابرت وراقبت وأحاطت بك العناية، وتم لك ذلك، رميت سلاحك وكسرت شراع سفينتك.

لا تطرد يومك بغدك، ولا تجعل نفسك تعانق ما ليس بحاصل، أو ما لم يحن بعد وقت حصوله. وإذا لم تفعل ذلك كنت غائبا، وضيعت إمدادات وقتك، وأسأت الأدب. لأن الله لم يخلق شيئا عبثا، وآياته لم تزل تتجلى لك ورب حضور منك يثمر علما يورثك القرب. ورب غيبة منك تثمر جهلا يورثك البعد. وإذا أنعم عليك بالقرب لم تعد تشغل بما سيأتي، لأن الذي يملك الكنز لا يعبأ بالفلس كما أن القرب منه ينفي كل الأبعاد، فلا أثر لماضي ولا لمستقبل، ومن تعلق بجمال الله وأسر بنوره، حضر ولن يغيب.

من المسلمات أو البديهيات العقلية، ان الزمان ذو أبعاد ثلاثة، ماض وحاضر ومستقبل. وهي عبارة عن ثلاث محطات مرتبطة، أو ثلاث حلقات في سلسلة واحدة، والإنسان لا ينفك متنقلا بوعيه بين تلك المحطات الثلاث. فبينما هو في حاضره، إذا به منجذب نحو الماضي، أو هائم في فضاء المستقبل. فتجده لا يمل من اجترار بعض الأفكار المتعلقة بوقائع وأحداث معينة ماضية، لها علاقة

بشخصيته؛ إما متلذذا بتذكرها إن كانت سارة، أو متألما إن كانت مقلقة أو محزنة. كما تلقاه في لحظات أخرى قد ألقى بنفسه في بحر المستقبل، وأطلق العنان لخياله كي يداعب ما يجود به ذلك البحر من نسمات وأحلام. وقد يكون استدعاء الماضي واستحضاره أو التحليق في فضاء المستقبل، مما يعين الشخص على تحقيق هدف من الأهداف، أو وضع أسس لأفكار وتصورات بناءة، وهذا ما نلمسه في سير الأبطال والقادة، أو العلماء والدعاة. بيد أن عامة الناس ممن ابتلوا بهذا الأمر؛ أي استدعاء الماضي أو التحليق في المستقبل، لا يجنون أي فائدة، بل يلحقون الأذى بذواتهم، خاصة عندما يغدو ذلك الأمر وسواسا من الوساوس، وهنا تضعف شخصيتهم وإرادتهم، ويصبح وجودهم ثقلا على المجتمع.

ثم إن الشخص المريد البناء لا يلتفت إلى الماضي، أو يرنو إلى المستقبل، إلا وهو مشدود بحبل متين إلى حاضره، بل تجده لا يؤمن ولا يقدس إلا الحاضر، بحيث أن الصور والمعاني الملتقطة من الماضي أو المستقبل سرعان ما تذوب في اللحظة الآنية، ويبقى الحاضر هو المهيمن والمطلق.

.لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك.....، إن من الصفات والمعاني السامية التي ينبغي للمؤمن أن يعيها ويتحقق بها، صفة أو معنى اليقين. واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وأهل اليقين هم أهل الفلاح، قال تعالى: **﴿والذين يؤمنون بما انزل إليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون﴾** [سورة البقرة 4-5]. واخبر سبحانه عن أصحاب النار أنهم لم يكونوا من أهل اليقين، قال تعالى: **﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾** [سورة الجاثية 32].

وعندما يستولي اليقين على القلب، يمتلئ نورا وإشراقا ومحبة لله، ورضا وشكرا، وتنتفي عنه الشكوك والهموم والغموم. ومن ثمراته أنه يدعو إلى قصر الأمل والزهد والتوكل والصبر، ثم إن استحضار حال اليقين والتحقق به، وممارسته

يجعلك ممسكا بناصية الزمن الحاضر أو اللحظة الآنية، أو الساعة التي أنت فيها. وما ضيع المسلم هذا الكنز إلا بضعف اليقين، ولذا تجده يحس بسرابية الزمن الحسي؛ الذي ينسرب من بين أصابعه انسراب المياه الجارية؛ فلا تكاد يده الإمساك بلحظة واحدة منه. إنه يفلت من بين يديه وهو في ذروة الاعتقاد بامتلاكه؛ يالها من مراوغة الزمن الحسي؛ ولو كان العبد من الموقنين بالآخرة لأفلح في إمساكه بلحظة الآن، ولاحتفظ بحضورها وعمقها وخصوبتها، بل وتجددها وتدفقها وحيويتها. لأن المسلم عندما يوقن بالآخرة، فإنه يستحضرها في قلبه، ويتمثل عظمتها ومشاهدها، ويسيح في أرجائها ويشرب من رحيقها، ويتذوق نعيمها وحلاوتها، ثم يفيض على قلبه من معانيها وحقائقها، ما يزيده ثباتا وأنسا ويقينا. ثم إن فكرة الآخرة خارجة عن مفهوم الزمن الدنيوي، وبالتالي فإن المسلم الذي يستحضرها بعمق يسبح لا محالة في فضاء الزمن الثابت، أو اللازمن مما يجعله يحس ويشعر بثبات الزمن في دنياه فيمسك دائما باللحظة الآنية.

إن هذه المعاني والحقائق المتدفقة عندما تنسكب في شغاف قلبه ويرتوي بها كيانه، وتلهج بذكرها ألسنة خلاياه، تثمر معرفة لا عهد للعقل بها، أي لا تدخل في دائرة المعرفة العقلية، وإنما هي من ثمار المعرفة القلبية الثابتة اليقينية.

إذا كان عالم الآخرة لا يخضع لزمان ذي أبعاد ثلاثة كزماننا، لأنه عالم أبدي سرمدي موصوف بالبقاء خلافا لدنيانا الفانية. إذا كان الأمر كذلك، فلا عجب أن يتحقق المؤمن الموقن بالله في وقته وحاله، وينسلخ شعوريا من الزمن الدنيوي الفاني. لأن تمثله بصدق ويقين لعالم الآخرة، يجعله يحيا بقلبه ووجدانه في هذا العالم ولله في خلقه شؤون، وصدق رسولناﷺ إذ قال: **"كن الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"**[23]، في حين أن الإنسان الكافر أو الغافل، لم يفهم عالم الشهادة ولم يستفد منه، بله التشوف إلى عالم الغيب والآخرة قال تعالى: **﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** [الروم].

23- رواه البخاري.

إن هؤلاء الغافلين ينحصر علمهم الدنيوي في بعض ظواهر الحياة الدنيا، ويجهلون كل ما يتعلق بحقيقة هذه الحياة وباطنها، ذلك أنهم وقفوا أو رضوا بمستوى القشور والبريق، والزينة الظاهرة فمنعهم ذلك من الغوص في الباطن لاستخراج اللآلئ واليواقيت، ولو أنهم لم يسقطوا في أسر تلك الزينة والقشور، لجنوا ثمرات فكرية طيبة، بل علوما ومعارف متعلقة بباطن الحياة الدنيا، ذلك الباطن الموصول بالآخرة، أي أن التفكر في باطن تلك الحياة أو باطن عالم الشهادة، يفضي بالعبد إلى عالم الآخرة، فإذا هو متصل بربه يسبحه على الدوام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**يسبح لله ما في السموات وما في الأرض**﴾، بل قد يقوده سمعه الباطني -وهو في حال الخشوع والتبتل والانقطاع إلى الله- إلى الشعور بتسبيح الكائنات وتذوقه. فإذا هو ذاكر ومسبح، ودائر في فلك التسبيح ذاته، ذاك الذي تدور فيه تلك المخلوقات التي استرق سمعه الباطني تسبيحها، والله على كل شيء قدير.

وفي نفس السياق يمكن القول أيضا: إن الله تعالى يخبرنا أن ما خلقه من زينة فوق الأرض إنما هو محض ابتلاء أو اختبار، فمن اجتازه بسلام ولم تفتنه زهرة الحياة الدنيا أو ظاهرها، قاده موقفه الحازم إلى كهف الرحمة، الذي هو بمثابة باطن الدنيا الموصول بالآخرة. إن فتية القرآن عندما أحسوا بلظى زينة الدنيا وقساوة وظلم أهلها، التجأوا إلى الكهف واعتصموا به، فسكن خوفهم وروعهم بعد أن شملتهم الرحمة ونظروا إلى الآخرة بعين اليقين، وهكذا كلما زهد العبد في ظاهر الدنيا، رغب في باطنها أي في لبها وحقيقتها، فقادته تلك الرغبة إلى الآخرة وربطته بها، فلا يزال عاكفا عليها حتى يلقى مولاه، سبحانه ما أجله، والسر في ذلك العكوف، أنه انجذب إلى عالم الآخرة تحت تأثير ذبذبات أو إيقاعات التسبيح الكوني الذي انتظم في سلكه إلى الأبد، قال رسول الله ﷺ مخبرا عن أهل الجنة: «**ويلهمون التسبيح كما تلهمون النفس**»[24].

24- انظر الحديث في الترغيب والترهيب للمنذري.

وبعبارة اخرى يمكن القول، إن المسافة أو الهوة بين الكافر أو الغافل وعالم الشهادة، طويلة وسحيقة جدا. ويبدو أن هذا الإنسان لم يفهم الحقائق التي يمكن أن تستفاد من خلال التدبر في عالم الشهادة، فهذا العالم لا يوحي إليه بشيء من تلك الحقائق، ولا يربطه بعالم الغيب، بل ضرب بينه وبين هذا الأخير بسور عظيم لا يستطيع خرقه، لأنه لم يخرق بعد السور الذي ضرب بينه وبين عالم الشهادة. وهكذا لقد حيل بينه وبين العالمين بسبب كفره أو غلفته...

وإذا ما قارنا عقليا بين فضاء ما يقع عليه بصرنا من عالم الشهادة، وفضاء الفسيح اللامتناهي الغائب عنا وعن حواسنا. وجدنا أن عالم الشهادة لا يمثل اكثر من حبة رمل واحدة من رمال شواطئ الأرض، إذا اعتبرنا حبات تلك الرمال ممثلة لمخلوقات وكائنات وكواكب عالم الغيب، وهكذا فإن عالم الشهادة لا يساوي على المستوى الكلي شيئا إزاء عالم الغيب، ومن هنا فإن الارتباط بالعالم الثاني ونشدانه، **﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾**[25] اقرب إلى حقيقة الإنسان ومصيره. وما أجمل الأحاديث النبيوية التي تصور الانتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب والآخرة، وتحث على قطع "المسافة المتوهمة" بينهما، قال رسول اللهﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، **،كن في الدنيا كانك غريب او عابر سبيل،**[26] وقال أيضا، ،مالي وللدنيا ما انا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها،[27].

ومن ناحية أخرى لما كان الوقت سريع الانقضاء، وكان ما مضى منه لا يرجع ولا يعوض، بشيء، كان انفس واثمن ما يملك الإنسان، فهو رأس ماله الحقيقي. إن المسلم الغافل عن هذا الكنز الثمين سيتحسر عليه لا محالة ساعة الاحتضار،

25- سورة الضحى، آية 4.

26- رواه البخاري.

27- حديث صحيح.

حين تلوح له أعلام الآخرة، ويتمنى لو منح مهلة من الزمن، وأخر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات؛ قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون، وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان ياتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني إلى أجل قريب فاصدق واكن من الصالحين**﴾[28].

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحرصون كل الحرص على ألا يمر يوم أو بعضه أو ساعة من الزمن، دون أن يتزودوا منها بعلم نافع أو عمل صالح، او بمجاهدة نفس، أو إحسان إلى الغير، وكانوا يرون أن من علامة المقت إضاعة الوقت، ويقولون الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

إن الآيات والأحاديث والآثار والحكم الدالة على أهمية الوقت كثيرة، لا تحصى ومن هنا فإن العقلاء والحكماء من المؤمنين الصالحين، بحرصهم الشديد على الاستفادة من الوقت جعلوا الآن هو وحده المستحق للحياة، لأنه وحده ما يمكن ان تملكه اليد وتقبض عليه دون الماضي والمستقبل.

وهكذا تغدو لحظات الآن بمثابة القوة المتدفقة التي تمنح الشعور بالقدرة على امتلاك الذات والوقوف في وجه تيار الزمن الجارف، أي الماضي أو المستقبل، ومنعه من سحق الذات، والتهام حضورها.

إن هذا الزمن بماضيه ومستقبله يكون مدمرا للذات عندما يستعمله العقل استعمالا سلبيا، وذلك بإيعاز ووحي من النفس الأمارة، فيكون من نتائج هذا الاستعمال السيئ؛ سلب الذات حضورها الذي يحقق لها كمالها، فتنساق في أودية السكر والغيبوبة. في حين يكون بناء ومفيدا للذات، عندما يستعمله العقل المنور بنور الله استعمالا نافعا، وذلك بتنبيه ووحي من النفس اللوامة، أو النفس المطمئنة، فتكون النتيجة مزيد من وعي الذات وحضورها، لأن زمن الآن في هذه

28- المنافقون، آية 9.

الحال يستفيد من الماضي والمستقبل، بل يلتهمهما ويستوعبهما، إذ هو جامع للأزمنة في حيويتها وتواليها. معنى هذا أن الماضي المستفاد منه، أو المستقبل الباعث على العمل والاستشراف، كلاهما ينصهران، بقوة الحضور الذاتي، في بوتقة زمن الآن. وهنا تعي ذات المؤمن في آنها الحضور الكلي للوجود، كما تتجلى لها العبودية المطلقة للكائنات، فتقتمص سر الوجود والغبطة الأبدية. وإذا ما كان هناك من ماض تتالم ذات المؤمن لتذكره، فإنه الماضي النقي؛ ماضي الفردوس القديم، ماضي، ﴿**اسكن انت وزوجك الجنة**﴾ [البقرة، آية 4]. وإذا كان هناك من مستقبل تعاني هذه الذات أشواقه وحرارته وحنينه، فإنه مستقبل التواصل المتجدد مع أصولها الأولى التي انفصلت عنها. ومن هنا كان المؤمن الحق هو ذاك الغريب الذي يعبر السبيل، لحظة الآن، الرابطة بين الفردوس المفقود والفردوس الموعود، مصداقا لقولهﷺ: **،كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل،**.

وبعد، هذا ما حضرني من أفكار واستنتاجات وإشراقات حول الواردات الثلاثة المتعلقة بالوقت.

وأختم هذه الجولة بشرح وارد أخير وهو وارد مرتبط بمفهوم العلم:

،شرف العلم على قدر معلومه، والعلم علمان علم تطلبه، وعلم يطلبك والأول كسبي لا يخلو السعي وراءه من عناء، ولا تخلو طريقه من العثرات، وقد لا يشفي الغليل. والثاني وهبي ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**﴾ وطريقه مجاهدة النفس ومحاسبتها وثمرته الطمانينة، لأنك قصدت معلومك وهو الله بما يحب أن يقصد به ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾،.

جاء في "لسان العرب": "العلم نقيض الجهل"، وفي "المعجم الوسيط": هو "إدراك الشيء بحقيقته". كما عرف بأنه: "نور يقذفه الله في قلب من يحب". والعلم أساس الدين والدنيا، وسر صلاحهما سيما إذا اقترن بالخشية. وكلما استضاءت الحياة بالعلم استزادت من النعيم، وكلما ابتعدت وانحرفت عنه، اقتربت من الجحيم. فالعلم والسعادة صنوان، كما أن الجهل والشقاوة أخوان.

وما تنعم المتنعمون ولا تلذذ المتلذذون بأكثر من تنعمهم وتلذذهم بنعمة العلم. لأن كل لذة سوى لذته فانية. فلذة الأكل تنتهي عند الشبع، ولذة الوقاع تنتهي عقب الإنزال، ولذة جمع المال منغصة بنوائب الدهر وفجائعه، بينما لذة العلم لا تفنى، وقلما يحول بين العالم وعلمه مانع، بل تجده يجد في التحصيل وهو يدافع المرض، أو يعاني الفقر، أو ملقى داخل أقبية السجون. ويكفيه فخرا أن ذكره لا ينقطع ولو بعد موته. وفي هذا المعنى يقول الشيخ عبد الوهاب بن السبكي: «واللذة حصرها الإمام الرازي والشيخ الإمام (يعني والده السبكي) في المعارف»[29]. والعلم هو الكنز الذي لا يفنى والذخيرة التي توقد البصيرة. وقال بعضهم: «أي شيء أدرك من فاته العلم؟ وأي شيء فاته من أدرك العلم؟».

وللعلم قوة لا تضعف وسلطان لا يقهر، ولذا نجد ان الله سبحانه وتعالى سمى الحجة العلمية سلطانا. قال ابن عباس رضي الله عنه: كل سلطان في القرآن فهو حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿**قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ يعني ما عندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم[30]، وقال تعالى: ﴿**إن هي إلا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان**﴾، ما انزل بها حجة ولا برهانا، بل هي من تلقاء انفسكم وآبائكم، وقال تعالى: ﴿**ام لكم سلطان مبين فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين**﴾، يعني حجة واضحة فاتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم، إلا موضعا واحدا اختلف فيه هو قوله: ﴿**ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه**﴾، فقيل المراد به القدرة والملك: أي ذهب عني مالي وملكي فلا مال ولا سلطان، وقيل هو على بابه أي انقطعت حجتي وبطلت فلا حجة لي، والمقصود أن الله سبحانه سمى العلم والحجة سلطانا لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل

29- ولي الدين العراقي، "الغيث الهامع، شرح جمع الجوامع"، طبعة 1، دار الكتب العلمية 2004، ص. 814.

30-الضوء اللامع، 2/ 36.

سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد. إن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد إنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها[31].

ثم إن العلوم الصحيحة تتجاذب وتتلاقح، مما يؤدي إلى تطورها ورقيها، خاصة إذا كانت نوايا العلماء خالصة نقية، تحوم حول محور الإنسانية وتهدف إلى تحقيق المثل العليا. أما إذا كان هناك علماء ومفكرون لا تربطهم بالإنسانية، ولا بالمبادئ والمثل العليا أدنى رابطة، مثل صناع القنابل الجرثومية، والأسلحة النووية، أو البيولوجيون الذين يفسدون خلايا الإنسان والحيوان تحت اسم البحث العلمي والتطور، فإن علومهم تكون وبالا عليهم وعلى الإنسانية أجمع، وهذا ما نلمسه اليوم، في كثير من العلوم التي ظهرت أو تطورت في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة خاصة في أوربا وأمريكا.

كما أن شعور الغربين بالكبر والغطرسة، ومعاناتهم عقدة التفوق والجنس الآري، جعل الهوة بين ثقافتهم وثقافات الشعوب الأخرى، تزداد إتساعا وعمقا، مما صير الحوار الثقافي بين الشرق والغرب أمرا مستحيلا، خاصة بعد تصعيد وتيرة العولمة. وهذه القطيعة الثقافية والفكرية التي حصلت بين الغرب والشرق، يتضرر بسببها الإنسان الغربي أكثر من الإنسان الشرقي، إذ لو كان الغرب متواضعا واعترف بما للشرق من حضارات وثقافات وعلوم، وسعى إلى الاستفادة منها والنهل من معينها، لما ابتلي بالحروب، والأمراض النفسية، والانتحارات، وألوان من المشاكل والأزمات الاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية، ولعل ما خفي وما يتوقع أشد وأهول.

31- الإمام ابن قيم الجوزية "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة"، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1، ص. 61، 1419/ 1998.

ومن ناحية أخرى، هناك اختلاف جوهري بين مفهوم العالم في الإسلام والعالم في الثقافة الغربية المعاصرة. فالعالم في التصور الإسلامي هو الذي تتوفر فيه بالإضافة إلى تخصصه، شروط ومميزات أساسية أهمها، العلم بمبادئ الدين، وخشية الله تعالى. قال سبحانه وتعالى، **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**. ومفهوم الآية أن من لا يخشى الله ليس عالما على وجه الكمال، ولو بلغ ما بلغ في مجال العلم والمعرفة.

،فلا يصح اعتبار الملحد المتخصص في الفيزياء عالما مهما بلغت شهرته، بل هو مهني ماهر في مهنته، وليس إلا فيزيائيا قحا، وهو كالنجار الفنان الذي يعالج قطع الأخشاب ليشكل منها ما يثير إعجاب من لا يتقن حرفة النجارة، ومحترف الكيمياء والفيزياء يتقنون صنعتهم لدرجة تبهر البسطاء أو غير المتخصصين...، وكذلك الذي يحفظ النصوص الدينية ويوظفها في إخراج الفتاوى التي تخدم أغراض السلطان، والقانوني الذي يشارك في صياغة القوانين الظالمة... كل هؤلاء وأمثالهم العلم الحقيقي منهم براء وهم في الحقيقة وباء،[32].

ويشهد لما قال هذا الكاتب قوله تعالى، **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** [سورة الروم، الآية،7].

ثم إن هذا الانحراف والانتكاس في مفهوم العالم في الثقافة العربية المعاصرة، يرجع إلى انتشار واستفحال حركتي الاستغراب والتغريب في العالم الإسلامي. وبما أن الضعيف مولع بتقليد القوي على حد تعبير العلامة ابن خلدون، فإن كثيرا من المصطلحات والمفاهيم التي تزخر بها ثقافتنا العربية والإسلامية، قد أصابها داء التحريف والتشويه. وهكذا أفرغ مفهوم العالم عندنا من محتواه الروحي والإيماني والعقدي، تأسيا واحتذاء بالغربيين. فلا عجب إذا سمعنا أن فلانا يمنح لقب العالم وهو يكن المودة لليهود والنصارى، أو يخالف

32- د. هانئ عبد الرحمن مكروم، "العقل تنظيمه وإداراته"، القاهرة، 1417 /1997، ص. 343-344.

إجماع العلماء في مسائل وقضايا مشهورة أو معلومة من الدين بالضرورة، أو يؤول نصا قطعيا من نصوص الشرع تأويلا يناسب أهواءه، أو يجاهر ببعض الميولات العلمانية، أو ينتصر للضلالات والخرافات، إلى غير ذلك مما يتصف به كثير من علمائنا في هذا الوقت الذي أصبح فيه العالم الحق كالكبريت الأحمر.

ولقد كان للتيار العلماني أثر كبير في خلخلة مفهوم العلم، وثوابته في العالم أجمع. إن القطيعة الروحية والمعرفية التي أحدثها مفكرو وفلاسفة النهضة الأوربية الحديثة بين الإنسان والسماء، بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وبين الخلق وخالقه... إن هذه القطيعة الخطيرة التي انبثق منها مذهب العلمانية والإلحاد وألوان من الفلسفات المادية واللادينية، قلصت مجال العلم وحصرته في مساحة ضيقة جدا هي عالم الشهادة المحسوس، وأنكرت وجود ما يسمى عالم الغيب الذي من عناصره الروح، وحياة البرزخ، والجنة والنار، وعالم الملائكة، وما يتعلق بيوم القيامة والحساب.

إن الوارد يشير إلى وجود علمين، أحدهما كسبي والآخر وهبي. وهذا يذكرنا بإشكالية معرفية كانت موضوع جدل بين الفقهاء والمتصوفة خلال عصور طويلة. وكان هذا التقابل بين العلمين من عمل المتصوفة الذين وضعوا مفاهيم ومصطلحات أخرى متقابلة مثل شريعة وحقيقة، وظاهر وباطن... واحتقروا علوم القرآن والفقه والحديث، وسموا أصحابها علماء الأوراق، وخصوا أنفسهم بعلوم الأذواق.

ومن الكلمات المشهورة التي تروى عن بعضهم قول قائل منهم، «نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت». وقول الآخر، وقد قيل له، «ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال، ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق؟» وقول الآخر، «العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل»... ونحو ذلك من الأقوال المبثوثة في كتبهم.

قال أبو حامد الغزالي في "الإحياء"،

.فإذا عرفت هذا فاعلم ان ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم، وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بانوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية. فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له.

وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها بقطع الهمة عن الأهل والمال والولد، وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن (١١)، ولا بالتامل في تفسير، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه، الله الله على الدوام مع حضور القلب، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه، إلى يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد،

واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق، وعند ذلك إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا، تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون ابتداؤه كالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط،[33].

إن كراهية كثير من المتصوفة للعلم الشرعي، ومقتهم للطرق الحميدة والمشروعة المؤدية إلى تحصيله، مسألة مشهورة كنار على علم. وقد لا تجد صوفيا واحدا عالما بالشريعة، وفكره خال من الخواطر، والوساوس، والشطحات، والآراء الشاذة. ولقد سموا الشريعة علم الظاهر، وسموا هواجس النفوس علم الباطن. وأوضح مثال واقعي على رسوخ قدم المتصوفة في الجهل والضلالة، حال الطرق الصوفية الآن في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، حيث تمارس في الزوايا ألوان من السلوكات والضلالات والشركيات، باسم العبادة والتقرب إلى الله. كما يستعبد الشيوخ المريدين البله والسدج، ويلقون بهم في بحر الخيالات والخرافات والأوهام، إلى غير ذلك من المصائب، والطامات التي لا يتسع المجال لذكرها.

ولما أعرض المتصوفة عن العلم الشرعي، أو لم يتقيدوا بضوابطه وطرق تحصيله المعهودة، خالفوا وصية إمام الطريقة، أبي القاسم الجنيد رحمه الله، حيث يقول، ،طريقنا مبنية على الكتاب والسنة...، ووقعوا فيما أسموه، ،العلم

33- ابو حامد الغزالي، "إحياء علوم الدين"، مجلد 3، ص. 29-30. بيروت، دار الكتب العلمية.

اللدني،، الذي حسب رأيهم يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده المتقين الذين سلكوا درب التصوف، وأماتوا شهواتهم وأهواءهم بكثرة العبادة والرياضة النفسية، كما اجتهدوا في تخلية قلوبهم من الرذائل وتحليتها بالفضائل، كي تغدو محلا لورود الواردات، وتنزل العلوم والمعارف والنفحات. وقد لا أجانب الصواب إذا قلت بأن محيي الدين ابن عربي كان اكثر المتصوفة اهتماما بهذا المجال، بل يعتبره أهل التصوف إماما في العلم اللدني. ومن جملة أقواله الدالة على ذلك قوله،

،وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التاليف، وإنما كان يرد علي من الحق تعالى موارد تكاد تحرقني، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها، فخرجت مخرج التاليف لا من حيث القصد، ومنها ما ألفته عن أمر أمرني به الحق في نوم أو مكاشفة،[34].

وقوله في كتابه "فصوص الحكم"، ،فإن حكم موسى كثيرة، وأنا إن شاء الله أسرد منها في هذا الباب، على قدر ما يقع به الأمر الإلهي في خاطري فكان هذا أول ما شوفهت به،[35]. (؟؟)

ويقول عن كتابه "الفتوحات المكية"، ،بنيت كتابي هذا، بل بناه الله لا أنا، على إفادة الخلق، وكله فتح من الله تعالى،[36].

ويقول في الكتاب نفسه، ،الحمد لله الذي جعلني من أهل الإلقاء والتلقي،[37].

ومن أشعاره في هذا المضمار، قوله،

قلمي ولوحي في الوجود يمده ◆ قلم الإله ولوحه المحفوظ
ويدي يمين الله في ملكوته ◆ ما شئت أجري والرسوم حظوظ[38]؟؟؟

34- ابن عربي، "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، بيروت 1981، ص. 17.
35- ابن عربي "فصوص الحكم"، تحقيق ابو العلا عفيفي، بيروت 1980، ص. 197.
36- ابن عربي "الفتوحات المكية"، المجلد 4، ص. 47.
37- المرجع نفسه، مجلد 1، ص. 58.
38- ابن عربي، "التدبيرات الإلهية..."، ص. 162.

ويقول في كتابه "فصوص الحكم" أيضا:

،وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء. وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم. ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه، متى رأوه، إلا من مشكاة خاتم الأنبياء. فإن الرسالة والنبوة، أعني نبوة التشريع ورسالته، تنقطعان، والولاية لا تنقطع ابدا. فالمرسلون، من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل في التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه، ولا يناقض ما ذهبنا إليه. فإنه من وجه يكون انزل، كما انه من وجه يكون أعلى. وقد أظهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه في فضل عمر في أسارى بدر بالحكم فيهم ،وفي تابير النخل : فما يلزم الكامل ان يكون له التقدم في كل شيء وفي كل مرتبة. وإنما نظر الرجال إلى التقدم في رتبة العلم بالله. هناك مطلبهم. وأما حوداث الاكوان فلا تعلق لخواطرهم بها فتحقق ما ذكرناه،[39]. (!!)

ويقول في كتا به "فصوص الحكم" أيضا:

،اما بعد: فإني رأيت رسول اللهﷺ، في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيدهﷺ كتاب، فقال لي: هذا كتاب "فصوص الحكم" خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به !!! فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا، فحققت الامنية (أي امنيتهﷺ): واخصلت النية (لتنفيذ امره) وجردت القصد والهمة (أي لم اربطهما باي هدف دنيوي او اخروي) إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي، رسول اللهﷺ من غير زيادة ولا نقصان،[40]. !!!!

39- فصوص الحكم، ص. 62-64.

40- فصوص الحكم، ص. 47.

ومما هو مسطر في كتاب "الفصوص" هذا، من العلوم اللدنية الصوفية، قوله:

«ولمـا أحب الرجل المـرأة، طلب الوصلة، أي غـاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أمر بالاغتسال منه فعمت الطهارة، كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة، فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره.(!!!) فطهره بالغسل؛ ليرجع بالنظر إليه فيمن فنى فيه، إذ لا يكون إلا ذلك، فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة، كان شهودا في منفعل، وإذا شاهده في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه، كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل؛ لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة؛ لهذا أحبﷺ النساء؛ لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح»[41].(؟!!!)

ولقد خوطب ابن عربي في نهاية معراجه بما يلي:

«أنت كيميائي، وأنت سيميائي، أنت إكسير القلوب، وحياض رياض الغيوب، بك تنقلب الأعيان أيها الإنسان، أنت الذي أردت، وأنت الذي اعتقدت، ربك فيك إليك ومبعودك بين عينيك، ومعارفك مردودة عليك، ما عرفت سواك، ولا ناجيت إلا إياك»[42].(!!!)

ومن أشعاره اللدنية التي يعبر فيها عن عقيدة وحدة الوجود، قوله:

فلـولاه ولـولانا ❖ لما كان الذي كانا
فإنـا أعبـد حقـا ❖ وإن اللـه مـولانـا
وإنا عينـه فاعلـم ❖ إذا قلت إنسـانـا
......

41- عبد الرحمن الوكيل، "هذه هي الصوفية"، بيروت 1984، ص. 39-40.

42- ابن عربي: "الإسرا إلى مقام الأسرى، أو كتاب المعراج"، بيروت 1988، ص. 168.

فاعطيناه ما يبدو ◆ به فينا وأعطانا
فصار الأمر مقسوما ◆ بإياه وإيانا[43]

وقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ◆ إذا لم يكن دينه إلى ديني داني
لقد صار قلبي قابلا كل صورة ◆ فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ◆ والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنا توجهت ◆ ركائبه فالحب ديني وإيماني[44]

هذا غيض من فيض مما يتضمنه كلام ابن عربي من انحرافات وضلالات ومسوخات، يسميها علوما لدنية وفتوحات ربانية. ونظراؤه من الصوفية في هذا كثير، كالغزالي والسهروردي وابن سبعين والجيلي والتلمساني وغيرهم.

وللعلامة الفقيه محمد بن قيم الجوزية كلام في العلم اللدني يستحسن الاستشهاد به:

و"العلم اللدني" ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالبرضي الله عنه وقد سئل: "هل خصكم رسول اللهﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل وهو الديات، وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر"[45]، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما، فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان، فهو لدني. لكن من لدن من؟ إنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا،

43- المرجع نفسه، ص. 143.
44- ابن عربي، "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"، ص. 39.
45- رواه البخاري.

بموافقته لما جاء به الرسولﷺ عن ربه عز وجل. فالعلم اللدني نوعان، لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي. والمحك هو الوحي. ولا وحي بعد رسول اللهﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد، وكفر مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق، أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر. ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته. ولو كان مأمور بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه.. ولهذا قال له، ،أنت موسى نبي بني اسرائيل؟ قال، نعم، ومحمدﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين. فرسالته عامة للجن والإنس، في كل زمان ومكان. ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام، فإنما يحكم بشريعة محمدﷺ.

فمن ادعى انه مع محمدﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة، فليجدد إسلامه، وليشهد شهادة الحق، فإنه بذلك مفارق لدين الاسلام بالكلية. فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله. وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه[46].

نستخلص من هذه الإشكالية المعرفية التي جادل فيها الفقهاء خصومهم الصوفية، أن العبد المسلم يمكنه الظفر ببعض الثمرات العلمية والمعرفية عن طريق العلم اللدني. بيد أن هذه المعرفة المحصلة عن هذه الطريق ينبغي تمحيصها والتأكد من صحتها، بعرضها على الكتاب والسنة، إذ لا وحي بعد رسول اللهﷺ. والمعرفة اللدنية الصحيحة لا تنبت إلا في رياض القلوب التقية السليمة من البدع والانحرافات العقدية، ومن الأهواء والشهوات النفسية، تلك القلوب التي تنورت بالبصيرة.

46- المدارج، مجلد 2، ص. 536-537.

والبصيرة نور يقذفه الله في قلب عبده المؤمن، فيرى من خلاله كثيرا من الحقائق ويفهم أمورا يستعصي فهمها على غيره. فهذا الفهم خاص مرتبط أساسا بالعلم الوهبي أو اللدني، ومندرج في إطاره. وفي هذا الصدد يقول صاحب "المدارج" أيضا: «فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف التي لا تنال بكسب ولا دراسة، إن هو إلا فهم يأتيه الله عبدا في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه»[47].

وإلى جانب البصيرة هناك مرتبة الإفهام؛ انطلاقا من قوله تعالى: **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾** [سورة الأنبياء، الآيتان: 88-89].

إن مما لاشك فيه، أن العبد المؤمن التقي السالك سبيل العلم والمعرفة، والمتدبر بخشوع وإجلال في كتاب الله، قد يعرف بعض الحالات الروحية يرقى فيها بقلبه إلى مستوى الفهم عن الله سبحانه وتعالى، وما ذلك على الله بعزيز. والفهم عن الله لا يكون من خلال الوحي، إذ ذلك خاص بالأنبياء والرسل، وإنما يكون عن طريق الإلهام مثلا.

وقال في "المدراج" أيضا:

«فالفهم نعمة من الله لعبده، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة **﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾**، وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه

47- المدارج، مجلد 1، ص. 157.

بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم، فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها[48].

ويعتبر الإلهام أيضا من المصادر المعرفية الإيمانية التي تزيد العبد المؤمن إيمانا ويقينا وتغذي قلبه بمعاني كثيرة، تلك المعارف التي تنحذر وتتسرب إلى هذا القلب من عالم الجود والكرم. جاء في "لسان العرب": ،وألهمه الله خيرا؛ لقنه إياه. واستلهمه إياه؛ سأله أن يلهمه إياه. والإلهام ما يلقى في الروع،[49]. ويرى الفقيه العلامة ابن حزم الأندلسي أن الإلهام؛ ،علم يقع في الأنفس بلا دليل، ولا استدلال، ولا إقناع، ولا تقليد،[50].

والإلهام أيضا؛ خطاب يلقى في قلب المؤمن من قبل الملك كما في الحديث المشهور؛ ،إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاذ بالخير وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان إيعاذ بالشر وتكذيب بالوعد،[51]. ومن هذا الخطاب، واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين قال رسول اللهﷺ؛

،إن الله تعالى ضرب مثلا؛ صراطا مستقيما. وعلى كنفتي الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. فالصراط المستقيم؛ الإسلام. والسوران؛ حدود الله. والأبواب المفتحة؛ محارم الله. فلا يقع احد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس

48- المدارج مجلد 1 ص 66.

49- ابن منظور، "لسان العرب"، مادة "لهم".

50- ابن حزم، "الإحكام في أصول الأحكام"، مجلد 1 ص 38.

51- رواه ابن حبان وصححه.

الصراط، كتاب الله. والداعي فوق الصراط، واعظ الله في قلب كل مؤمن. فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة[52].

ولا يصح الإلهام عن الله حتى يكون خاضعا لقواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها، وذلك بأن يعرض عليها ويوزن بميزانها، فإن كان مأمورا به أو مباحا قبل، وإلا رد.

إن الإشارة السابقة إلى المفاهيم الثلاثة، البصيرة، الإفهام ثم الإلهام، كان المقصود منها إلقاء الضوء على معنى العلم الوهبي الذي ورد في وارد، «شرف العلم على قدر معلومه والعلم علمان أحدهما كسبي... والثاني وهبي...». ومن ثم أرجو أن يكون قد اتضح في ذهن القارئ، أن العلم الوهبي شيء حقيقي وواقعي، يؤمن به المؤمنون بالله ويكذب به أصحاب القلوب المريضة، وأساتذتهم من العلمانيين والضالين المضلين. هذا وإن أعظم مصادر العلم الوهبي هو تدبر كلام الله وكلام رسولهﷺ، ثم العمل الصالح المتمثل في العبادة الخالصة وفق شرع الله سبحانه.

والخلاصة أن العلم الكسبي أو المكتسب المشار إليه في الوارد، هو المعول عليه، إذ العلم بالتعلم والحلم بالتحلم كما في الحديث الصحيح. وعلى طالب العلم أن يصبر على طلبه ويتحمل عناء تحصيله، ويستعين بالله في ذلك، وأن يقتدي في هذا الأمر بسيرة العلماء الربانيين ومنهجهم وسلوكهم. وإذا أخلص المسلم وصدق في طلبه للعلم الكسبي، فإن العلم الوهبي سيطلبه ولا بد، وسيباغت قلبه، بل يهجم عليه على حسب استعداده ومنزلته الإيمانية والمعرفية. فالعلم الوهبي مع العلم الكسبي كالنتيجة مع المقدمتين؛ فمن لم ينظر في المقدمات لا يحصل على النتيجة. وكذلك من لم يمارس العلم الشرعي ويتقيد بضوابطه، لا يحصل على العلم الوهبي والله أعلم. ثم إن ذلك لن يتم إلا إذا توفر شرط أساسي وهو الخشية.

52- "المدارج"، مجلد 1، ص. 72.

قال الله سبحانه وتعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** [سورة فاطر، آية: 28]، وقال تعالى أيضا: **﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾** [آل عمران، آية 79]، وقال رسول اللهﷺ: **"إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية"**[53].

إن خشية الله سبحانه وتعالى من صفات العلماء المخلصين الصادقين الزاهدين، وكلما ازداد المؤمن علما بالله وصفاته وأسمائه، ازداد خشية منه ورهبة، والقلوب التي لا تعرف الخوف من الله قلوب خربة، في حين أن الخوف إذا سكن القلب نفى عنه الشهوات القاتلة، وأحرقها كما تحرق النار الهشيم، وملأها نورا وضياء.

وقال في المدارج: "فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب. والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء، قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يقوم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا خفته هربت إليه"[54].

والخشية عند العلماء حالة روحية ومعنوية متأصلة في باطن القلب، ومتجلية في الجوارح والحركات والسلوك والمعاملات، كما أن هذه الحالة تستمد قوتها وطاقتها من الصفات الدينية، والأخلاقية الزكية والحميدة؛ كالإخلاص والصدق ودوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، ولزوم التواضع والسكينة والوقار، والتخلق وبالزهد والورع والتقوى والصبر والرضا والقناعة وسلامة الباطن، وحسن الخلق ومحبة الله، ومتابعة الرسولﷺ. وهي أخلاق وصفات أصبحت عزيزة ومفقودة، وقل أو ندر المتصفون بها من العلماء اليوم بله العوام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

53- حديث صحيح.

54- "المدارج"، مجلد 1، ص. 566.

قال الشيخ أحمد بن قدامة المقدسي: «فأما علم المعاملة وهو علم احوال القلب، كالخوف والرضا، والصدق، والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، كسفيان الثوري، وابي حنيفة والشافعي وأحمد، وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء، عن تلك المقامات، لتشاغالهم بصور العلم من غير اخذ على النفس، ان تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه... واعلم أنه قد بدلت الفاظ وحرفت، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح. فمن ذلك الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب»[55].

يتبين من خلال كلام الإمام المقدسي أن الخشية التي هي أساس علم أحوال القلب، ضرورية للفقه والتفقه وطلب العلم وتعليمه، وأن الانحراف الذي طرأ على موضوع الفقه ومسماه حينما أصبح "خاصا بمعرفة الفروع وعللها"، بعد أن كان مجاله الأساسي والجوهري هو "علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس...."، هو انحراف خطير جدا نتج عنه جرح عميق أصاب كيان الأمة الإسلامية، وذلك أن بعض الفقهاء عندما بدأوا ينسلخون من الخشية ويقبلون على الدنيا ويسعون إلى الأمراء، انطفأ نور الآخرة في قلوبهم، فأعرضوا عن جوهر الفقه، وهو فقه القلوب والنفوس، واقتصروا على فقه المعاملات وظاهر فقه العبادات، مما كان من أسباب ظهور علم التصوف، الذي اخذ على عاتقه القيام بما أهمله أولئك الفقهاء. وهكذا ظهر الحارث المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد وغيرهما، وظهر ما سمي بعلم الأذواق في مقابل علم الأوراق، وتطور الكلام في الزهد والرقائق وألوان من علوم الأحوال والمقامات، مما هو مسطر في كتب المتصوفة. بيد أن الأمر لم يقف عند العلاج او سد الثغرة، وإنما تولد

55- عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، "مختصر منهاج القاصدين"، بيروت 1422-2002، ص. 15.

عن هذا التيار الجديد ضروب من الشطحات والفلسفات؛ مثل الحلول ووحدة الوجود، ثم بعد ذلك ابتلي المسلمون بالطرق الصوفية، وتلك داهية الدواهي التي مازالت جاثمة على صدر الأمة الإسلامية إلى يوم الناس هذا.

لما أعرض أولئك الفقهاء عن جوهر الفقه وروحه، وركنوا إلى الدنيا، حل الحرص والطمع في قلوبهم محل الورع والخشية، فخفت نور الإيمان، وضعف الكشف عن حقائق الأشياء، وتلاشت الصفات العقلية والقلبية الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال. والنور الصادر عن الخشية من أعظم الأنوار الباطنية التي تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، سيما إذا اقترنت تلك الخشية بالاتباع، أي اتباع السنة المحمدية والهدي النبوي، ذلك أن أنوار الخشية مع الاتباع، تطفئ نيران الأهواء النفسية والشهوات، فتسطع الهداية والسعادة في القلب، وتنتشر في الصدر وتعلو المحيا، "فيكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر" كما قال بعض السلف.

أما إذا كانت الخشية غير مقرونة بالاتباع كما هو حال متفلسفة الصوفية والمتصوفة الطرقيين، وغيرهم من المبتدعة قديما وحديثا، فإن علاقتها بالخشية الأولى علاقة اشتراك لفظي لا غير. وشتان ما بين مسمى الأولى ومسمى الثانية، فإن بينهما تقابلا واضحا لا يخفى على ذي عينين. سأل فرقد السبخي الحسن البصري عن شيء، فأجابه قائلا: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمك يا فريقد، وهل رأيت بعينيك فقيها، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الذي لا يهمز من فوقه، ولا يسخر بمن دونه، ولا يبتغي على علم علمه الله تعالى أجرا"[56].

وقال الإمام مالك: "ليس العلم بكثرة الرواية، ولكنه نور يجعله الله في القلوب"، وقال أيضا: "الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل، ولكن عليه علامة ظاهرة: وهو التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود"[57].

56- محمد بن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، مجلد 1، ص. 92.

57- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية بيروت د. ت، مجلد 1 ص. 53.

وعن عون بن عبد الله قال، «قال عبد الله بن مسعود، ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية»[58].

نخلص من خلال ما سبق، إلى أن العلم الصادق الصائب والخشية شيئان متلازمان. أما العلم الذي يرائي به صاحبه، أو يسعى به لتحقيق أمر دنيوي محض، أو يمزجه بضلالات وبدع، فهو علم وبال على صاحبه في الدنيا الآخرة، ولا علاقة له بالخشية.

5- واردات وخواطر إيمانية بعد التوبة

وبعد هذا الكلام، قد يقول قائل، لولا تلك الحياة الصوفية التي كنت تحياها، ومحبتك للتصوف وأهله، واستلهامك لتراثهم، لما فتح الله عليك بهذه الواردات ولما سطرت منها شيئا.

اقول له، ليس التصوف شرطا هنا، والفتح من الله يعم المؤمنين، وأحيلك مثلا على كتاب "المدهش" لابني الجوزي رحمه الله، إنه كتاب ضخم يحتوي على مئات الواردات والخواطر الإيمانية، كتب بأسلوب جزل، سلس، أخاذ ومؤثر، علما بأن كاتبه لم يكن صوفيا، بل اشتهر بنقده للصوفية، ووضع كتابا في ذلك أسماه "تلبيس إبليس"، ثم إني بالمناسبة أضع بين يدي القراء مجموعة أخرى من الواردات والخواطر، كتبتها في مطلع العقد الأول من القرن الميلادي الحالي، أي بعد اثني عشرة سنة من حصول توبتي ومفارقتي للتصوف،

لذة الذكر

لا تعبده على رسم التكليف، مجردا عن المحبة والتزليف. فغاية العبادة رؤيته، ولذة القلب ذكره، وما تلذذ أهل الجنة بأعظم من تلذذهم برؤيته وذكره إذ "يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس".

58- العلامة جمال الدين بن الجوزي، صفة الصفوة "، دار الكتب العلمية بيروت، 1419 / 1999، مجلد 1، ص. 218.

فأصل محبته في قلبك، واذكره على كل أحوالك، واعلم ألا طعم للجنة ألا بذكره ورؤيته، وأن حقيقة العبودية في تأمله جل جلاله وعكوف القلب عليه، وعند كشف الغطاء يفرح المؤمن باللقاء.

كمال عقلك في كمال ذكرك

كمال عقلك في كمال ذكرك: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم"، ونقصان عقلك من نقصان ذكرك: "لا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء"، فثلث عقلك في الذكر قائما، والثلث الثاني في الذكر قاعدا والثلث الأخير في الذكر عل جنبك. فارتع في رياض الذكر تلهم أنفاسه وتمنح أسراره، ف "أهل الجنة يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس"، واحذر الغفلة كي لا تضيق أنفاسك ويختنق صدرك ولات حين مناص.

الجبل الخاشع

نظرت إلى الجبل الخاشع فاهتز كياني، وخشعت جوارحي، فإذا بقلبي يستمع إلى تسبيح صخوره وهوامه وطيوره وأعشابه. فأحسست بوطأة التسبيح وصولة الخشوع، وحملني شعوري إلى عالم يجل عن الوصف و النعت، فنادتني الأشواق: اللحاق اللحاق، ارتحل المحبون وحان وقت الفراق.

كن موصولا بالحق

إذا رمت التلذذ بشئ فلم تظفر بلذة، أو كان حظك ضعيفا، أو كطيف لم يلبث أن توارى، فاعلم أنك لم تكن موصولا بالحق وأن

حبلك منقطع. واعلم أن لا تلذذ في الحقيقة إلا ما كان مع الذكر والقرب والحضور، وأن لذة الغفلة والبعد أماني وسراب وغرور. فاظفر بالأصل تنعم به وبالفرع، وإلا فلا أصل ولا فرع وإنما ضرب في حديد بارد.

إذا استغرق الذكر كيانك

إذا سكت لسان فمك عن الدنيا ونطق لسان قلبك بالآخرة، وتجوهرت نفسك بالذكر حتى استغرق كيانك، واستمعت إلى لغته العذبة بسمعك الباطني، وحصل لك الهيام بالتهليل والتسبيح، وصرت كأنك مجذوب وما بك جذب، فاعلم أن الله قد فتح في قلبك نافذة تطل منها على جنة الذكر، وأن أهل الجنة، جعلني الله وإياك منهم، "يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس"، وأن ذكرك يوقد من شجرة الإيمان تكاد أغصانها تتلألأ نورا ولو سكت لسان قلبك ساعة.

لابد لك من ذكره

يا عبد الله لا بد لك من ذكر ربك، في يومك وغدك، ودنياك وآخرتك. يا عبد الله إذا ذكرته، ستذكره في جنتك، تحت ظلال أشجارك، وعلى ضفاف أنهارك، وبين حور عينك ونسائك. يا عبد الله شتان بين ذكرك له مع أنفاسك، وذكرك له مع زفراتك وآهاتك. وشتان بين ذكرك؛ يا حبيبي اشتقت لرؤيتك فإذا بمركب بجانبك يحملك إلى مولاك، وبين ذكرك؛ "يا مالك ليقض علينا ربك". فالبدار البدار، والتوبة التوبة، وما أراك تطيق رؤية مالك.

اختبر نفسك

إذا اعترضت محابه سبيل محابك فانزعجت نفسك واستعجلت هواها ، فاعلم أنها كاذبة إذ المحب للحبيب مطيع. ولو أنها استجابت لأوامر ربها و سارعت إلى مرضاته؛ "وعجلت إليك ربي لترضى"، لظفرت بحلاوة إيمانية عظيمة و لذاقت لذة روحية زهدتها في سائر اللذات و لله في خلقه شؤون.

نفحة علوية

زارتني سحرا نفحة علوية وسرى نورها في كياني، فأحسست بنشوة أطربت خلاياي ودعتني إلى مناجاة ربي، وإذا بي، والقلب قد امتلأ نورا وإشراقا، أطل من نافذة اليقين، وأنظر بعين البصيرة إلى درر ولآلئ من معاني الألفة الأصلية، وإذا بالآخرة قد أقبلت في أبهى حللها، وبالدنيا قد أدبرت كاسفة أنوارها، فسألت الله محبة الأولى وحسن تدبير الثانية.

نسمات نزوله

إذا داعبت نسمات نزوله قلبك، وانشرح لها صدرك، وودع الكرى عينيك، فاعلم أن الله قد أمطر قلبك بسحائب رحمته، وأنزلك ضيفا عليه، وبادر بتودده إليك ومحبته لك؛ "يحبهم ويحبونه"، فلا تعجبن لخفة روحك ولهج لسانك بذكره ولما تفارق مضجعك. لقد دعاك لقيام ليلك، وتزكية نفسك ومهجتك، فهو الفاعل وأنت المفعول، وإن كنت الذاكر وهو المذكور؛ "هو الذي حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم".

لمة الملك

إذا انتبهت من نومك على صدى آيات من الذكر، أو ترجيع الآذان، أو "استجب لما يحييك"، أو ما شابه ذلك، فاعلم أن لمة الملك قد طافت بك، وأنك مدعو إلى مأدبة الرحمن. فانشط من عقالك، وبادر إلى ما يطهرك ويزكيك، وشد مئزرك وأحي بقية عمرك، واستدرك ما فاتك. فإذا أصبحت فصن طرفك عن رؤية ما يفسد عليك حالك، وصن خاطرك عن التفكر فيما يحجبك عن ربك. وانذر للرحمن صوما عن الدنيا كي تفطر على الرحيق المختوم وشراب السلسبيل.

احتم بجماله من جلاله

احتم بلطفه من قهره، واستعذ به منه كما فعل النبي[إذ قال: "أعوذ بك منك"، واحذر مكره لأنه العزيز القهار، ولا تأمنه فقلبك بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء. ولا يكن تعلقك باسمه الكريم يحجبك عن ذاته، ولا تشغل بشئ عنه فتفوتك رؤيته.

كيف يتحقق السفر إليه

طرقت الباب فقيل لي: ارجع من حيث أتيت، فافترشت التراب واستلقيت، ثم توسدت بخدي العتبة وبكيت، فنادتني هواتف الروح؛ تجرد من تاج الهوى وطيلسان النفس الأمارة، وطواغيت الشرك، والبس رداء الذل والافتقار، وقميص الخوف والاضطرار، وقتئذ يفتح الباب على مصراعيه، ويتحقق السفر منه إليه، ويحلو الذكر والمناجاة، ويحصل مالا تترجمه العبارات.

احذر عدوك واعتصم بالله

أنت طيب وعلى الفطرة والحنفية السمحاء، فلا تترك الشياطين تجتالك، فتتلف فطرتك ثم تغتالك، وتلقي بك في جهنم أهذا مآلك؟ !
لا والله؛ التجئ إليه، واعتصم به، واستمطر رحمته، ينزل على صدرك ماء يسري إلى قلبك الظمآن، فينبت نبات التقوى بإذن ربه، فينقشع الغمام، وتحيا جوارحك وخلاياك، ويصفو لك الجو فتتمنى اللقاء.

زهرة الدنيا خضراء الدمن

زهرة الدنيا خضراء الدمن، فلا ترن إليها بطرفك فيأسرك جمالها.
وزهرة الآخرة منة المنن، ساقها في باطنك حيث فطرتك، ورأسها في مستقره حيث جنتك. واعلم أن حبك للأولى يسلبك زمانك ويفنيك، وأن حبك للثانية يحييك في زمانك ويبقيك، فلا تزال ترقى حتى تفنى إرادتك في إرادته سبحانه ما أجمله.

اطلب دار البقاء

طلق العجوز الشمطاء، واخطب ود العروب الحوراء، واهجر رجز دار الفناء، واصب إلى نعيم دار البقاء. فقد سرى الركب ليلا وأنت نائم، وطوى المراحل بالذكر وأنت هائم، فإلى متى تظل مغلولا مقيدا وقد أرادك الله عبدا مخلدا.

أين الفاني من الباقي

تقرب إلى الواحد الأحد، وعانق ساحل الأبد، ولا تقف مع اليوم فقد أخنى عليه الذي أخنى على لبد، ولكن انظر إلى غد. فمثلك لا يرضى بالدنيا مقاما، ولا يكن لنعيمها حبا ولا غراما. فأين الفاني

من الباقي، وأين الثرى من الثريا، وأين النعيم بلا نعيم من نعيم لا يفنى، وأين الملك بلا ملك من ملك لا يبلى؛ حيث ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتطيب اللقيا؟!!

تأس بالمصطفى ﷺ

اقذف بحق الروح على باطل النفس فإذا هو زاهق، وتأس بالمصطفى وعبد طريقك ونقه من أثر كل شيطان مارق، وتبتل إلى الحق تبتيلا ولا تحفل بالكرامات واللوامع والبوارق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتحجب بالشهوات عن المناجاة وبالخلق عن الخالق. "وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون"، وانبذ وساوسهم وفلسفتهم، وعض بالتواجذ على كلام الصادق، واسلك سبيل أهل الصلاح والزهد والرقائق.

تحرر من رغبات العاجلة

لا ترغب عن ملة إبراهيم فتشقى، ولا ترغب بنفسك عن نفس نبيك فتضل. واجمع رغباتك في المرغوب الأحد، تسعد في الدارين إلى الأبد. واعلم أن تحررك من رغبات العاجلة يقوي يقينك ويحبب إليك نعيم الآجلة، وأن لهثك وراءها يضنيك، ومن الظمأ ما يرويك. واعلم أن شمسك قد أوشكت على الطلوع من مغربها، وأن ساعتك قد بدت كاشفة حجابها. فأين قلبك من وطأتها وهولها، وما أنت قائل لربك وربها؟

مطلبك الوهم

إذا التفت عنه فأنت في غير مطلب، وأضحى مطلبك الوهم لأن ما سواه باطل. واعلم أن كل لذة فانية إلا لذة تصلك بوجهه، أو بصفة

من صفاته. ومن ذاق حلاوة القرب زهد فيما سواها. وحلاوة القرب تدوم والأخرى لا تلبث إلا عشية أو ضحاها.

حياتك في الدنيا

حياتك في الدنيا زرع وبذر وفي الآخرة جني وحصاد، فعليك ببذر الخير والتزود ليوم المعاد، وتجنب بذر الشر فربك بالمرصاد، والخير يدوم ويبقى ويخلد أبد الآباد، والشر في الدنيا يبلى ويفنى فما أشبهه بالرماد؛ "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد".

أفكلما غزلت نقضت

ألهمك غزل الدنيا والآخرة وأبيت إلا النقض فما شكرت، ودلك على الهداية فأبصرت ثم أعرضت فما اهتديت، أفكلما غزلت نقضت؟ بئس ما فعلت، ألهمك التقوى فما زكيت، فضللت الطريق وهمت على وجهك بما د سيت، عاهدت الله في الزمن الأول وقبل الأزمان فما وفيت، وشهدت له بالربوبية فما حفظت وما التزمت؛ "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين". فيا ليت شعري هل إلى مرد من سبيل، ومن دواء للقلب العليل، ومن أمل في نعيم الجنة وظلها الظليل، رحماك رحماك عبد لاذ بحماك.

القربان

قرب نفسك قربانا ليتم البيع (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) ثم انظر هل بقيت نفسك معك أم فارقتك، فإن كانت الأولى لم يتقبل

قربانك، وإن كانت الثانية فأبشر لتمام البيع. واعلم أن بينك وبين الفلاح صبر ساعة وصدق لحظة وخشوع في صلاة؛ "قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون".

صم عن شهواتك

صم في الدنيا عن شهواتك لتفطر في الآخرة على رحيقك ولذاتك، وتخلص من سجنك وقيوه نفسك كي تعانق فطرتك وفضاء روحك. واعلم أن تسخيرك لنفسك لن يتحقق إلا بالصوم المذكور، فعجل بذلك لأن عجلة الزمان تدور، وزمانك طوع يديك إذا لم تثاقل نفسك إلى الأرض وتبادر إلى العبور.

الكلمة الطيبة

في البدء كانت الكلمة "كن"، فكانت الأكوان وما شاء الله أن يكون؛ "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون". استمع إلى صدى "الكلمة" في الأرض والسماء، بل في نفسك وبين جناحيك "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". تدبر "كن" وسريانها في الكون، ولا تحجب عن المكون، وعلق الفعل بالفاعل والكلمة بصاحبها. قل كلمتك ولتكن طيبة؛ "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة"، واستمد قوتك من روح الكلمة الأولى، واستعن بالقرآن حيث جلال الكلمة والمتكلم، ونور المعنى في جمال المبنى. وإذا لم تنهل من مشكاة كلامه فقد حيل بينك وبينه، وعلا الوقر أذنيك، وانتفى صدى الكلمة في جوانب نفسك؛ "لهم آذان لا يسمعون بها". قل كلمتك وكن صادقا تجد أثرها في نفسك وفيمن حولك. ومن صدقت لهجته ظهرت حجته، وأفضل القول ما

اقترن بالفعل. قل كلمتك وكن مريدا فالكلمة من الكلمة، والإرادة من الإرادة، ولا حول ولا قوة لك إلا به سبحانه ما أعظمه.

حيرة وسكينة

كثرت آمالك وتنوعت، وتجددت حاجاتك وتعددت، فضاق عليك الفضاء بما رحب وهمست إلى نفسك: يا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني كنت معدوما ولم أكن شيئا مذكورا. ثم تداركتك رياح الرحمة لما علمت ألا ملجأ منه إلا إليه، وأن الفاقات لا تسد إلا بالافتقار إليه، وأن ذكرك له يغنيك عن ذكرك لما سواه، فتلاشت آمال النفس الأمارة، وخمدت نار الحاجات والشهوات، وحلت السكينة محل الحيرة، ورجعت إلى أصلك حيث أنت الذاكر وهو المذكور، وأنت العابد وهو المعبود.

الحق أبلج والباطل لجلج

اربدت الدنيا من حولك وأظلمت، وضاقت نفسك بالخطوب والفتن فاشتكت وانزعجت، ثم جهلت فوسوست؛ بدا الباطل وبطن الحق والمسلمون غثاء كغثاء السيل، فانج بنفسك في شعاب الأودية أو أودية الخيال. كلا فالحق أبلج والباطل لجلج، ومن ركب المنى أسحر وأدلج. فلا يجزعنك زبد الظلم ورعد الطغاة وبرقهم، فإنها سحابة صيف عن قريب تقشع، ويتلاشى ما كان يخاف ويفزع؛ "وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام".

الله أكبر

الله أكبر نقطة بدايتي ونهايتي ونور هدايتي إلى فطرتي. الله أكبر حصني وملجأي وفرحي ومناي، وعقّال نفسي وغذاء روحي. الله أكبر فرجي من كربتي، ونجاتي من شهوتي، وسلاحي على أعدائي، ونصري في معركتي. الله أكبر سر توبتي وأوبتي، ونفق مراقبتي ومحاسبتي، وعدتي في مجاهدتي. الله أكبر مفتاح صلاتي وركوعي و سجودي وذكرى وتسبيحي.

الله أكبر من السماوات والأرض فلا تعجبن، وأكبر من هول القيامة وزلزلة الساعة وذهولها فتثبت، وأكبر من بلوغ الروح الحلقوم والتراقي فظن به خيرا، وأكبر من مرضك وفاقتك وهمومك فلا تيأسن، وأكبر من خوفك وأمنك وحزنك وفرحك وفقرك وغناك وضعفك وقوتك ومعصيتك وطاعتك فلا تزيغن، وأكبر من صبرك وشكرك، وبرك وإحسانك وذكرك وعبادتك وخشوعك فلا تغترن، وأكبر من نعيم الذكر وبرد اليقين وحلاوة الأنس ولذة المناجاة وبوارق المكاشفة فلا تقنعن كي لا تحجب، والتمس المزيد وأن إلى ربك المنتهى.

كسر أصنامك

كسر أصنامك تبد لك أسرارك، ولذ بالرحمان تفز بالإحسان. أبناء جلدتك عكفوا على الأصنام وزينوها ووضعوا لها الأرقام، وحلت عندهم محل خالق الأنام، ومنها المحسوس والمخيل، والثاني أظلم لتعلقه بالوهم، وكلاهما سراب لأن ما خلا الله باطل، "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور". لا تلتفت إلى الأصنام فتصيبك السهام، وتبرأ منها وممن يطوف حولها، واحتم بصاحب الحول سبحانه ما أعظمه.

لا تفرح بموجود

لا تفرح بموجود ولا تحزن على مفقود ؛ "لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم" ، واعلم أن الله خلقك له ؛ "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" . فلا تجعل نفسك لغيره فتشقى وتعذب ؛ "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى" . واعلم أن الموجود من الفانيات خلق لك ولم تخلق له ، فلا تفرح لتملكه ، ولا تحزن على فقدانه فتلحق الأذى بجوهرك .

قد أعذر من أنذر

أما تدري أن صدى (ألست بربكم) ما زال يتردد في كيانك ، وأن أثر(بلى شهدنا) لن ينمحي بل حجب عن سمعك الباطني تحت وطأة شهواتك ، بعد أن زين الشيطان لك أعمالك وجعلت كلام ربك دبر أذنيك ، واتخذت إلهك هواك . حذار أن تحشر مع طائفة (إنا كنا عن هذا غافلين) أو طائفة (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) وقد أعذر من أنذر .

نظرة إلى الكعبة

نظرت إلى الكعبة نظرة أشرقت لها روحي ، واهتز كياني ، وطرب قلبي ، ورقصت خلاياي ، فشق علي مغادرة المكان من شدة الأسر ووطأة الحال . فما أعذبها من لحظات ، وألذها من إحساسات ، وأسناها من إشراقات . فكأني باليقين قد بلغ مداه ، حتى لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، وبالشوق قد حقق مناه . فما كان مني والحالة هاته إلا أن عاهدت ربي على ما عاهدته عليه عسى أن أكون بذلك شكورا .

اسكن أول بيت

لا تسكن في مساكن الذين ظلموا ، ولا تسكن إلى بيت بنيته ورفعت قواعده ، فقد يتصدع أو يخر عليك سقفه ، واسكن أول بيت وضع لك تظفر بالهدى والبركة ، وتنعم بالأمن وتشملك الرحمة وتتجلى لك الآيات البينات ، واسأل الله استضافتك. وإذا لم تطأ أقدامك فناءه ولم تستطع إليه سبيلا ، فاملأ قلبك بحب رب البيت وعظمه ، فكم من حاج لم يحج ، وكم من قاعد حيل بينه وبين ذلك ، قد نال رضا الله وعفوه.

تفشتك ليلة عرفات

تغشتك ليلة عرفات فلا أثر ، وأظلك يومها الندي فلا مطر ولا عبر ، فأرض نفسك جذباء قاعا صفصفا ما الخبر؟ ضيف طاف بك فأقليته ، وتعرف إليك فأنكرته ، فأنت لحقيقة نفسك أشد إنكارا . اجعل أيام عمرك عرفات ، ترفع حجب نفسك ، وترن بعين قلبك إلى الغرفات ، وإلا فقد علا الران ووقع الختم ، وحيل بينك وبين خالقك لأن "الله يحول بين المرء وقلبه" .

أنعم بها من تذكرة

مالي وللفاني ، قد ملأ قلبي بالأماني ، وفي بحر الغفلة رماني ، أريد أن أحيا طليقا ، عاشقا للسبع المثاني ، ليس لي بد من خالقي ؛ اهرع إليه في كل حين ، يكلأني ويرعاني ، وبالذكر قد حباني ، سألته الزهد في الدنيا لأنه منبع اليقين ، والكنز الذي لا يفنى ، وطريق التمكين ، ومصدر العلم والتقوى ، وحلية المصطفى الأمين ، وأساس

العلم والإرادة ومفتاح باب السعادة، وسبيل التفكير في الآخرة، فأنعم بها من تذكرة.

طوبى للغرباء

اجعل التقوى زادك والمراقبة عضدك، واحرص على استحضار الخشية في قلبك، وانبذ ما علق به من أدران، وايأس مما في أيدي الخلق يقربك الخالق، وإذا قربك فقد اجتباك، وما ذلك على الله بعزيز. ومهما هان عليك شأن الخلق نجوت من الغرق، وركبت السفينة، وتبدد شبح الرياء. وإذا سلكت سبيل المجاهدة أعطيت دليل الهداية، ومن قرع الباب فتح له. والانسان خلق للعبادة، فإن مال عنها مال عن أصله، وأصبح غريبا عنه وذلك عين التيه. احذر أن تكون غريبا عن أصلك وفطرتك، واحرص على أن تكون غريبا في الدنيا تفز بسعادة الدارين، فإن النبي ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريبا ويعود غريبا فطوبى للغرباء».

ناشئة الليل

كم من متزمل راقد ليله لم يقرع النداء أذنيه، وكم من غافل صير ليله نهارا وعصى ربه جهارا. اهجر مضجعك واسهر حينا من ليلك في مناجاة ربك قبل أن يكشف عن ساق ويتعذر السجود. إن لك في ناشئة الليل نفسا أصفى، وذهنا أوعى، وقلبا أخشع، وصدرا أوسع. فإذا هدأت الأصوات، وانقطعت الحركات، توجه إلى خالق الكائنات، واجعل في قلبك للرحمات سبيلا عسى أن ينفعك ذلك يوم يأخذ العزيز الظالمين أخذا وبيلا.

نعيم المناجاة

الحمد لله رب العالمين؛ حمدني عبدي، الرحمن الرحيم؛ أثنى علي عبدي، مالك يوم الدين مجدني عبدي. أعظم بها من لحظات ينعم فيها القلب بصدى المناجاة، ويخترق الصدى حاسة السمع الباطنية، فيخشع الكيان أمام صولة الآيات، ويصبح الحق جليسك ومن وحشة الدنيا أنيسك، ومن أحسن من الله جليسا وأعظم منه أنيسا. طوبى لك وقد فتح الباب على مصراعيه، وأذن لك بالمثول بين يديه، فتصور المنح والعطايا من لذة الذكر ونعيم المناجاة إلى النظر إلى وجهه يوم لقائه.

بين نور الحياء ونار الاعتراض

أوجدك بعد عدم حقا، وأنطقك حين أشهدك على نفسك محبة وخيرا؛ "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى"، وخلق الكون وأقام السماوات العلا، وأمر من فيهن بتسبيحه كرما وعدلا. إن نظرت إلى كونه وخلقه بعين العدل تحققت به، واندفعت إلى فعله وتجلى لك العدل فيما يصدر عن ربك وعلمت أنه أعدل العادلين، فأطلعك على مقامك وألبسك نور الحياء، فأطفأ نار الاعتراض والجدال، وحل الصمت والرضا محل لم وكيف؟ وإن كنت كليل البصر حجبك وهمك عن رؤية العدل، وأراك الظلم مكانه، فحرمت الاستقرار وسقطت في مخالب الحيرة، وقمت كالذي يتخبطه الشيطان من المس، وحدت عن ناموس الكون مع أنك فيه، وإليه يرجع الأمر كله سبحانه ما أعدله.

ما ثم غير تدبيره

إلزم مكانك ولا تغادره إن كنت مقيما فيه بالله وإلا فلا مكان لك، والعلامة ألا ترى لنفسك علامة، ودوام التوبة والإبصار حين المس "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"، ورد ذلك إلى العناية الأزلية، واللاحقة عين السابقة "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"، وما ثم غير تدبيره، وتدبيرك مسؤول عنه، وبما كسبت رهين.

اتخذ لنفسك مكانا شرقيا

اتخذ لنفسك مكانا شرقيا واثبت على ذلك ولو غرب كل من حولك، والله يحجبك عن عيون الخلق. شمس بصرك تغرب لفنائها وفنائه. وشمس بصيرتك في شروق ولو عند كشف الغطاء، وحين تشرق الأرض بنور ربها، ويرفع الحجاب وتعنو الوجوه للحي القيوم. شمس المعارف الربانية تورث الوهب، ومن صفاته الوهاب، وشمس العلوم الدنيوية تورث الكسب ومن صفاتك الكاسب، وقد أمرت أن تتخلق بأخلاقه، وأخلاقه من صفاته.

الشمس على أطراف النخيل

لا تغتر بضوء الشمس فقد كسفت وهي على أطراف النخيل، والزمان قد انقضى نهاره ودخل ليله، وأوشكت شمس لا تغيب بالشروق، جدد إيمانك وتوضأ بماء الحياة من عين طاهرة، وامكث على ذلك لعلك تحظى بما لا يخطر على بالك، فقد يصيبك الله برحمة لا تشقى بعدها أبدا، وقد يعرفك بذلك لأنه يبشر من يشاء من عباده. وإذا مسك تلك الرحمة قد تشعر بفتور

في أعضائك وجوارحك وميل إلى الصمت، وأصل ذلك لذة باطنية أنستك ما سواها من اللذات، فإن دامت فنعما هي وإلا فما مستك رحمة؛ "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها".

هو المدبرُ وأنت المدبَر

إذا شق عليك أن تفكر فيما سواه وفيما لا ضرورة فيه، وقلت الخواطر أو كادت تنعدم، وألفيت باطنك ثابتا، وما وقع عليه بصرك من ظلال متحركا نحو العدم، كان ذلك من علامات اللطف. ومهما لطف بك الحق دمت محفوفا بعنايته، وكفيت التفكير في كثير من شؤونك، ولمست تحققها دون عناء منك، فهو المدبر وأنت المدبر.

أقم قيامتك

إذا تذكرت الواقعة، وبرق البصر، وخسوف القمر، ولم يصبك خدر، ولا وجدت أثرا في باطنك، فما حصل لك اليقين بالمشهد الرهيب. أقم قيامتك قبل يومها، واستحضر مشاهدها قبل أن تباغتك، واجمع غدك بيومك وما ثم غير يومك. وإذا صح منك التقرب أعطيت سر العبادة، ونلت حلاوة المناجاة، وغشيتك السكينة، وكتبت في ديوان المقربين، ومن ذاق لذة الوهب لا يفرح بالكسب.

يا لوهول المطلع

أزفت الأزفة، وصخت الصاخة، وأدبرت الدنيا وأقبلت الآخرة، وأنت في شأن آخر كأنك غير مطلوب ولا مخاطب؛ "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون". كلا لتقفن بين يدي العزيز ويا لهول المطلع، ولتفترسنك الندامة ويا لسوء المصرع، ليت أمي لم تلدني أين المفزع؟

جن ليلك

جن ليلك وأظلم، وانقضى نهارك وانصرم، ولم تجد آياتهما إلى قلبك سبيلا، ولا استطاعت أن ترتل كلماتها على سمعك ترتيلا، ولا أن تناجيك فتحدثت في باطنك لذة ونعيما ومشهدا جميلا. ما أقسى قلبك، وأ صم سمعك، وأعمى بصرك وبصيرتك!! فكأني أنظر إلى يوم القيامة وقد "عنت الوجوه للحي القيوم"، ومزقت القلوب الحسرة والندامة، "وقيل بعدا للقوم الظالمين".

نحن أقرب إليك

نحن أقرب إليك من حبل الوريد، والمنادي ينادي من مكان قريب، ونداؤه لم يطرق باطن أذنيك لأنك ممن لهم "آذان لا يسمعون بها"، فاقتصر سمعك على ظاهرك وحجب عنك باطنك حيث فطرتك، وفقدت حاستك السمعية جوهرها، فلا إلهام ولا نور، واختفى صوت المنادي ليزعجك بعد حين.

عليك باليقين

أنت ميت وتحسب نفسك حيا، وحياتك من نوره "أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها"، ونوره من اليقين، والموت أول مراحل اليقين؛ "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين". فأكثر من ذكر هادم اللذات كي تحظى باليقين، وينشرح الصدر، وتنعم باليقظة، وتستشعر غربتك الدنيوية، وتتنسم عبير الحياة الأبدية. فتقرب إلى الله، واسجد له بقلبك آخر سجدة، ولا ترفع رأسك منها أبدا، وصل صلاة مودع.

اعمل وظن بالله خيرا وبالنفس شرا ، وانشد اليقين حتى يستهين قلبك بما استثقلته نفسك ، وتعمل على المعاينة ، كالعبد في الدنيا أمام سيده ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، وإن أعوزك اليقين ثقلت عليك العبادة وحرمت السكينة وفاتتك لذة القرب .

أجمل ما يرى

خير ما يلقى في القلب اليقين ، وأجمل ما يرى وجه رب العالمين ، وألذ ما يطرب السمع كلام الحبيب ، وترتيل الذكر بمزمار داود ، وشذو نساء الجنة والحور العين . وأحسن ما تقر به العين مقام أمين في أعلى عليين . وكل ما لم يفض بك إلى هذا ، فوهم وغرور وتخمين ، أو هشيم تذروه الرياح فوق الربى وعلى البطاح . ولله در لبيد :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل ❖ وكل نعيم لا محالة زائل

وجه الله أعظم مما يخطر على بالك وأقر للعين وأجمل ما يرى وأبهى ، وليس وراء الله مرمى ، ولا بعد ذكر الله من خير يرجى أو نعمة تجتبى ، ولا أحسن من قرآنه ما يتلى ، وإليه يصعد الكلم الطيب ويرقى .

عرائس الجنة تناديك

عرائس الجنة تناديك وتتود إليك ، وقد طال انتظارها ولما يلن قلبك . بل أنت في شأن آخر ، وقد ركبت بحر الغفلة والشهوات ، فحيل بينك وبين هاتيك النداءات ، فضاعت روحك بين الأنفاق وفي الفلوات . آمن عقلك بالميعاد ولم يؤمن قلبك ، فلا خير ولا أثر . وإذا لم تتجذب نفسك إلى نعيم الجنة فقد حرمت المنة ، وخلا قلبك من التصديق ، وإن صدقت فلا يقين .

أجمل بيت

أجمل بيت أنت داخله جنة المأوى، حيث ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فطاب المقام وطاب المثوى. ذلك لمن سجد وعبد ونهى النفس عن الهوى وسلك سبيل الرشد، ولبس لباس التقوى. فليبشرنك ربك في دنياك، ولترتعن في النعم في أخراك فترضى، وهل جزاء من أحسن وقبل البيع إلا الحسنى؟

الطائف النفسي

إذا خطر ببالك خاطر نفسي أو شيطاني وطردته في الحال، نور الله سريرتك؛ "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"، وأبدلك به واردا إيمانيا تجد أثره في قلبك وكيانك، فتشعر بانتقالك من الظلمة إلى النور، ومن الضيق إلى السعة، ومن الأسر إلى العتق، وكأن مالك الملك ملكك زمام نفسك، فاحمد الله واثبت ولا تغتر لأنه مقلب القلوب سبحانه ما أعزه.

كن راميا

يا بني كن راميا ثم راميا ثم راميا، وإذا لم تستطع فعليك بسورة لقمان فإنها تعلم الحكمة، بل الوحي كله عين الحكمة. وإذا وضعت الحرب أوزارها، فنازل نفسك منازلة عزيزة، فإن أذعنت أو جنحت للسلم فاجنح لها، واشترط عليها، وإلا فلا تغمد سيفك حتى تفئ إلى أمر الله. فإن فاءت فعاملها باللطف والحكمة، فإنها أسيرة ومنكسرة. ثم صاحبها بالترغيب والترهيب وذكرها بالمنزل الأول؛ منزل الحبيب، قبل الشروق وعند المغيب.

تحل بالخشوع

إذا أدركته لم يفتك شيء، وإذا فاتك لم تدرك شيئا. واعلم أن العلم بلا خشية كالصلاة بلا خشوع، وأن العبادة بلا طعم كالبكاء بلا دموع. واعلم أن الموت أقرب إليك من حبل الوريد، وأن الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها. فأين أنت منها ومن الوعد والوعيد، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض ومن يغني ويعيد؟

انتصر على نفسك

اقتحم حصن النفس تفز بالكنز؛ (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)، واطرد جيش النحس؛ الشيطان وجنوده، فقد ملك الحصن وأنت ساه، وعاث فيه فسادا وأنت لاه. فغدا المريد وأنت المراد، وسلب منك العقل والفؤاد؛ (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله)، فإلى متى هذا النوم والسهاد وربك لك بالمرصاد؟

استحضر القيامة

أزعجتك المصائب وأقضت مضجعك الفتن والنوائب، فضاقت عليك الأرض بما رحبت، وهمست إلى نفسك: ليت أمي لم تولد ولا ولدت. ولو استحضرت مصيبة الحشر والقيامة، وتأملت ببصيرتك هول الحسرة والندامة، لهانت عليك مصائبك، وتلاشت من حولك نوائبك، ولعلمت أن (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)، وأن الأقلام قد جفت والصحف قد طويت وآدم بين الطين والماء.

لا تحجب بالمحسوس

ظاهرك من عالم الشهادة، وباطنك من عالم الغيب، وما بينك وبين العالمين كما بين السماء والأرض أو أبعد، والعلة حجاب نفسك

الحجاب. فلو خرقت هذا الحجاب، لبدت لك أسرار وحقائق من عالم الشهادة، ولارتحلت بقلبك إلى عالم الغيب والآخرة، ولغدوت من الذين يؤمنون بالغيب ويوقنون به. ونسبت إلى عالم الشهادة إلى عالم الغيب، كنسبة قطرة إلى ماء بحرها. فعالم الشهادة معدوم، وعالم الغيب موجود، والشهادة حبة رمل في بيداء الغيب.

ارض بالله ربا

لن تذوق طعم الإيمان ما لم يتجاف جنبك عن مضجعك، ونفسك عن شهواتك، إذ (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)، ولا لعبد قبلتين لعبادته. فكيف تعبد إلهين اثنين: إلهك وهواك؟! وهو لا يغفر أن يشرك به؟ وتتوهم وجود كعبتين (وكل في فلك يسبحون)، وحول كعبة يحومون، والملائكة من حول العرش يحفون، يسبحون لا يسأمون.

اطرد الشهوات

علا صدرك دخان الشهوات، وأثقل كاهلك حمل السيئات، وتمردت نفسك فلم تعتبر بماض ولا اتعظت بما هو آت، فحيل بينك وبين قلبك، وهمت على وجهك في الفلوات (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون). التمس نور الزهد وبدد أستار الظلمات، تظفر بالعقل والتمييز وأسمى الإرادات، وتحظ بالقرب واليقين والرضا وأرقى المحبات. وفي الحديث: (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس).

أنب إلى ربك

انقلب وأنب إليه، واسجد واركع له وحده تسلم. وهب حياتك وموتك له تغنم، وإلا فالنكد والعذاب: (ومن يشرك بالله فكأنما خر

من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق).

فالله الله، احذر المكان السحيق لا أنت عبد فيه ولا طليق.

استعد للموت

الموت الموت، القبر القبر، كأني محمول على الأكتاف؛ مسوق إلى روضتي أو حفرتي. فيا ليت شعري هل من أنيس يؤنسني أو جليس يحدثني؟ أنا عملك الصالح فطب نفسا وتفيأ ظلالي، أنا عملك القبيح تجرع سما وكابد الليالي.

استحضر الحسرة الكبرى

موتك حياتك، وحياتك موتك، موتك لقاؤك ولقاؤك حسرتك؛ (يا ليتني قدمت لحياتي). نفسك تختنق وفي القبر قد تحرّق، وفي النار قد تلقى فبئس المثوى والمرتفق. وبئس قولك؛ (يا مالك ليقض علينا ربك). هيهات هيهات، مات الموت وفات الفوات.

ما لك من اختيار

عليك بالاضطرار، فقد تقارب الزمان، وضاق الوقت، وأوشكت ساعة نفسك على التوقف؛ (أمن يجيب المضطر إذا دعاه)، ولذ بالافتقار، فلا ملجأ لك إلا هو؛ (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله)، وبادر إلى الفرار فقد سعرت النار ولفحك لهيبها ولما تراها؛ (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين)، واستنجد بالعزيز الغفار قبل أن يطلع النهار، فيغشى ضوؤه الأبصار، وقتئذ تعنو (الوجوه للحي القيوم)، ويتميز الحق من الباطل والمؤمنون من الكفار.

تذكر فوات الخير

هيهات التخلص من الهلع والنجاة من الفزع، لقد فاتك الخير وسبقه الشر، وأطعت الهوى والشيطان، فألقياك في اليم مخبولا ولهان. أما تدري أنك خلقت لعبادته؟ وأمرت بالصلاة لذكره، وبالصدقة لشكره وحمده؟ فافزع إليه ينكشف الفزع مما سواه، واخلع هواك تفز بهداك.

اخترْ ما عند الله

اجعل دنياك بين صلاتك وذكرك؛ (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)، تتحقق بعبوديتك لله، وإلا كنت عبد اللهو والتجارة، فحرمت الحياة الطيبة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. واعلم أن عبوديتك لله نعيم وبقاء، وأن عبادتك للدنيا شقاء وفناء أو هشيم (تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا).

تفكر في آيات الله

لست من عالم الشهادة وإن كنت جزءا منه، ولا صلة لك بعالم الآخرة مع ألا شهادة دون الآخرة. واعلم أنك حجبت عن عالم الشهادة لما لم تدلك مخلوقاته على خالقه، وحجبت عن عالم الآخرة لما تعطلت حواسك؛ (لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها)، وعكفت على مرآة خيالك. فعليك بإصلاح الحواس وكسر المرآة، كي تتجلي لك حقيقتك، وينكشف الغطاء، فتلتحم الشهادة بالآخرة والسماء.

رزقك يطلبك

الرزق مقدر فلم الهلع، والدنيا فانية فلم الطمع، والموت نازل، والواقعة واقعة، والقصاص حاصل، فبم الفرح؛ {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون}.

لا تكفر النعمة

ذقت رحمته فانبسطت وما شكرت، ثم نزعها فيئست وما صبرت، بل كفرت وجحدت، ثم أعرضت وأبقت، ونسيت أنك عبد لا رب لك سواه؛ {إن كل من في السماوات والأرض إلا آت الرحمن عبدا}، وأنك مملوك في مملكة الديان حيث تسعد مطيعا وتشقى آبقًا.

ارفع الحجب باليقين

رأيت الجنة بعيني نبيي فأحسست ببرد اليقين، وعاينت النار بهما فتعوذت منها ومن أهلها الخاسرين. فالجنة قد أزلفت، والنار قد سعرت، والمعاين نبيك، وبصره بصيرتك، وإلا فقد حيل بينك وبين نوره، وعند كشف الغطاء، يتميز الحق من الباطل والنور من الظلماء.

اتبع ولا تبتدع

اعتزلهم وما يعبدون، واصعد جبل الرحمة، وادخل كهف الحكمة؛ تسطع عليك أنوار الشريعة، فتحسن إلى نفسك وترد الوديعة. ولا تفصل بين الشريعة والحقيقة؛ فالحق واحد لا يتجزأ. ودع عنك خيالات القوم وشطحاتهم وهيمانهم، وتغنيهم بحقيقتهم؛ {فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}.

أثر الآخرة

إذا تمثلت حقيقة الزهد، وارتويت من معينها، وأحسست بروحها تسري في كيانك، ضاق زمن نفسك، وانحسرت الخواطر الشيطانية، واتسع زمن روحك، وتدفقت الخواطر الإيمانية، وعزفت نفسك عن الدنيا وتعلقت بالآخرة، وإلا فما تمثلت وما ارتويت وما أحسست، وإنما هي أوهام وضرب في حديد بارد. وشتان ما بين الزهد والتزهد، وما بين الحقيقة والدعوى.

احي حياة مودع

"صل صلاة مودع"، وأكل أكل مودع، واشرب شرب مودع، واحي حياة مودع، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح. وإذا لم تودع الدنيا بمحض إرادتك، ودعتك وأنت كاره، فاحرص أن تكون المودع لا المودع، والفاعل لا المفعول، والمنتصر لا المخذول. الضنك الضنك

أعرض الإنسان فانقلب الزمان، وفسد المكان؛ (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس). وأشرك الجنان، فانحرف اللسان، وضاع البيان. وهجر القرآن، فعودي الرحمان، ومات الإنسان؛ (أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمان ليس بخارج منها). إقرأ القرآن، ولذ بالرحمان، تمنح البيان؛ (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان).

كن بربك

حـقق ذاتك، وانف مـا ليس لك يثـبت مـا هو لك. والتـحلي بالتخلي، والثبوت يسبقه النفي: لا إله إلا الله. فتمسك بالآخرة، لأن الدنيا ظل زائل، وأنت فيها قائل. وليس لما خلا الله وجود بذاته، وربنا تعالى وحدة بذاته. فاخلع نعليك وجاوز العتبة، واسع إليه تجدك عنده وما كنت عند غيره.

ليكن همك الخالق

لا تطلب حدا ولا محدودا، ولا تسكن إليه، إذ لا وجود له بذاته. والمقصود وسع كرسيه السماوات والأرض؛ لا حدود له، والكرسي نقطة في العرش، والعرش مربوب له، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. ثم إن روحك تحن دائما إلى الأصل، فلا تتوهم حدودا لها، إذ كل محـدود يفنى وليست فانية. ولما كانت الأرواح تنشد اللامحدود باستمرار، كان ألذ ما تتمتع به العيون النظر إلى وجه الحق سبحانه ما أجمله. لا تجعل حدودا لهمتك، واعلم أن الله قد أرادك له، فلا غنى لك عنه، وهو غني عنك إذ كان ولم تكن.

افسخ بيع الغبن

اخرق سفينة دنياك كي تعيب، فيزهد فيها جنود النفس الأمارة، فتأمن شرهم، فيخلو لك الطريق، ويرق الحجاب. وأصلح سفينة آخرتك، فلا دار إلا دار الآخرة، ولا حرث إلا حرثها، وافسخ بيعك لها قبل فوات الأوان، فقد غبنت، ورد المال الفاسد إلى صاحبه. كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها.

أفق من غفلتك

لا خبر عندهم فيما هم إليه سائرون، ولا عقل لديهم يعقل ما هم به مخاطبون. كأنما وجدوا من غير سبب، ونشروا على الأرض لغير طلب. هيهات هيهات؛ أتظن الأمر لهو والحياة لغوا؟ كلا، إذ كل ما يحيط بك، لو أبصرت، له خاضع، وإليه راجع. فاخلع نعليك إنك قاب قوسين أو أدنى من الحرم الآمن، وإلا فار التنور وقيل بعدا للقوم الظالمين.

لا تعطل حواسك

تأمل ضخامة المكان؛ (إن في خلق السماوات والأرض)، وعظمة الزمان؛ (واختلاف الليل والنهار)، تحظ باللب والعقل واليقين؛ (لآيات لأولي الألباب)، وتتحل بأوصاف الذاكرين الواصلين؛ (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم)، وإلا فلا مكان لك ولا زمان، ولا ذكر ولا فكر، ولا اعتبار ولا استبصار، ووجودك عدم، وحياتك موت، وحواسك لا تستجيب؛ (صم بكم عمي فهم لا يعقلون).

اطلب حرث الآخرة

صم عن دنياك كي تفطر على آخرتك، واسأل الله أن يجعل شهواتك بردا وسلاما على قلبك، وأن يرسل عليه رياح الرحمة، فتثير سحائب اللطف، فيمطر بها أرض النفس الأمارة، فتهتز وتنبت من كل فعل جميل وخلق سني. (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه).

ارتو بماء اليقين

اطلب اليقين كي تقذف في عين الحقيقة، كما ألقي السحرة ساجدين، ولن يضرك بعد ذلك شيء، ولسان حالك: {إنا إلى ربنا لمنقلبون}. والتمس منه ربط القلب كما ربط على قلوب الفتية؛ {إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها}، وعلى قلب أم موسى؛ {لتكون من المؤمنين}، ثم لن تستوحش مما يستوحش منه الغافلون، ولن تأنس إلا بما يأنس به الواصلون.

تفيأ ظلال السكينة

استمطر سكينته وألح في طلبها فقد يكرمك بها؛ {هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم}. وإذا غشيتك، كنت في حرم آمن، أو كأنك في البلد الأمين، فاشتدت الفراسة، وقوي اليقين، وفتح لك باب الحكمة، فنهلت من عين المعاني والسبع المثاني، واستعذبت الرقائق ونطقت بالحقائق.

احذر زهرة الدنيا

راودتك الدنيا عن نفسك فاستجبت لها، وأماطت عن محاسنها الخمار فذهلت بها، وأسرت إليك بحديثها الساحر فأصغيت لها. كلا، لا تحجبنك "جنة" الدنيا عن جنة الآخرة، ولا الدار الفانية عن الدار الباقية، وشتان ما بين الفناء والخلود، وما بين العدم والوجود، وما أقرب يومك من اليوم الموعود.

إياك والاستدراج

علاك موج كالظلل فاستنجدت بالله فأنقذك، ثم همت في ظلمات بعضها فوق بعض فدعوته فخلصك، كم ذا يحسن وتسيء، وينعم

وتكفر؟ حذار أن يحرك ركود بحر النفس، فقد يعود ما دهاك بالأمس، ويباغتك موج أهول من السيل بالليل، وتبلغ الروح الحلقوم، ويعرض عنك الحي القيوم، فتفترسك الحسرة وتلقى في السموم.

اغتنم الأسحار

أشرقت الأنوار، وتفجرت العيون والآبار، وتنزلت الأسرار مع نزول الملك الغفار، وخوطبت في الأسحار: «هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له...». لا أحد في الدار، ولا من يرغب في الأذكار، أو يرجو الاستغفار؛ (صم بكم عمي فهم لا يرجعون). زهدت النفوس في عرائس الآخرة، وفي قوله: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)، فبئس الزهد وبئست الكرة الخاسرة.

لا تغرنك الأوهام

ما لك فتقت ما كان ولم يزل رتقا، ورمت بذلك قلب الباطل حقا، وزعمت أن الدين حقيقة وشريعة، وظاهر وباطن، والحقيقة لباب والشريعة قشور!! أما وسعتك عقيدة التوحيد وصفاؤها، وسنة المصطفى صلوات الله عليه وضياؤها. حذار أن تستدرجك الأوهام والخيالات، واللوامع والإشراقات، والبوارق والضلالات، فتمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

تجرد عما يقطعك

تجرد من نسيج أوهامك وغزل شهواتك، وأحرم بتوبة من غير ميقات، وطف ببيت التوحيد، وتعلق بمعاني الصفات الإلهية، واسع بين الخوف والرجاء؛ بدءا بالأول وختما بالثاني، واستمطر

الرحمة من فوق جبلها ، وتعرف إلى الرحيم معرفة لن تشقى بعدها أبدا ؛ (. . . اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت لهم . . .) . وتمثل نفسك إسماعيل الذبيح ، واقطع بسكين الصبر واليقين حلقوم النفس الأمارة والودجين كي ينهمر دم الغفلة والشهوات فتتجلى لك الآيات .

أيقظ بصيرتك

إذا استمعت إلى كلام الله ولم تتعظ فأنت أصم . وإذا نظرت إلى آياته في نفسك والكون ولم تهتد فأنت أعمى . واعلم أن الصمم صمم القلب والعمى عماه ؛ (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ، وأن النور واليقين في الوحي والشك يعتري ما سواه ؛ (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) .

عليك بطعم الإيمان

إذا ظفرت بحلاوة الإيمان ، فارعها وذد عن حوضها ، ولا تترك سبع شهواتك يلغ فيها ، فتنقلب مرارة وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . واعلم أن طعم الإيمان لا يجتمع وسم الشهوات ، كما لا يجتمع الإخلاص والرياء ، ولا التوحيد والشرك ، ولا العلم والجهل . ومن رام الجمع بين المتناقضين كان كالقابض على الماء .

الفصل الخامس :

توبة وأوبة

1- المعرفة الصوفية في الميزان.

2- شيخ التربية ضروري أم لا؟.

3- رجوع السفينة إلى شاطئ الأمان.

1- المعرفة الصوفية في الميزان :

لقد كنت أثناء ممارستي لهذه التجربة الصوفية مرتبطا بملكة خاصة، غير ملكة العقل المنطقي، تلك الملكة التي كانت تصلني ببعض الحقائق على نحو خاص، وتقوم فيها اللوامع والإشارات، مقام التصورات والأحكام والقضايا في المنطق الفعلي. ويغمرني من خلالها شعور عارم بقوى تضطرم في باطني، كفيض من النور الباهر. ومن هنا كنت أشعر بإثراء في كياني الروحي، وتحرر في أفكاري وخواطري. وانطلاق لطاقات حبيسة عميقة الغور في نفسي.

إن هذه المعرفة الذوقية لم تكن قط عملا من أعمال العقل الواعي، ولا أثرا من آثاره، كما أنه لا شرط لتحققها في وجدان الصوفية غير شرط القانون الذي يحكمهم، ويمتثلون أوامره؛ وهو قانون المجاهدة ورياضة النفس، على طريقتهم ومنهجهم. فإذا هذه المعرفة إرادة، وإذا هذه الإرادة امتثال والتزام. وهكذا تصبح المعرفة الذوقية مظهرا من مظاهر الإرادة والوجدان والاتصال الروحي.

إن الأساس في تكوين التجربة الصوفية هو المجاهدة والرياضة، ثم الترقي في المقامات والأحوال، ولا تفهم الأحوال الروحية في عين التجربة بغير هذا الاعتبار. وما دام الأمر كله معلق على سلطان هذه الأحوال، فإن مستند الدعاوى التي يدعونها هو منطق الوجدان لا العقل. ولما كانت علوم ومعارف الصوفية يغلب عليها الذوق والكشف الصوفيين، كان من البديهي أن يتسرب إليها الزلل والدخن، ويسودها منطق الأهواء والبدع.

بيد أن هذا لا يمنع الباحث الحصيف والناقد المنصف، من ذكر الصفحات المشرقة من أقوال وكتابات الجيل الأول من الزهاد، والمتصوفة المسلمين، أمثال الحسن البصري، والفضيل بن عياض، ووهب بن منبه، وبشر الحافي، والحارث المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد وأبو سعيد الخراز، وغيرهم ممن عاشوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة. فقد خلف هؤلاء الرجال من الأقوال حكما، ومن المعارف دررا ولآلئ جادت بها قرائحهم، وترجمتها ألسنتهم وسطرتها أقلامهم، يتذوق قارئها حلاوة معانيها، ويتنسم من خلال كلماتها صدق لهجة أصحابها، ومدى محبتهم لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ومجاهدتهم في سبيل تزكية النفس وتربيتها والسمو بها، ومدى شغفهم بالزهد والعبادة، والتأمل والتدبر، والمراقبة والمحاسبة. لقد كانت ألفاظهم كالتباشير مسموعة، وأزاهير الرياض مجموعة، ومعان كأنفاس تعبق بالراح والريحان، كلام كما تنفس السحر عن نسيمه، وتبسم الدر عن نظيمه، ألفاظ تأنق الخاطر في تذهيبها، ومعان عني الطبع بتهذيبها.

إن هؤلاء الرواد الأوائل من الزهاد والمتصوفة قد أرسوا، بما خلفوه من تراث زاخر ينبض صدقا وحيوية، قواعد متينة وطرقا تتعلق بمجال تربية النفس وتزكيتها، ومداواة أمراض القلوب، والحض على طرق باب التوبة، ونبذ الرذائل والتحلي بالفضائل، ولزوم التقوى وتفيؤ ظلال الأنس والمحبة، مستأنسين ومسترشدين بالكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين من فقهاء وعلماء السلف الصالح. ثم إن هذا التراث الثمين الذي يعبر عن أدب الزهد والرقائق يتناغم وينسجم مع روح الوحي وأسس الهدي القرآني، إلا أنه لا يخلو من هفوات وأخطاء ومزالق وجب على علماء الأمة وفقهائها التنبيه عليها وإصلاحها.

أما فيما يخص التراث الصوفي المتعلق بالأجيال والقرون اللاحقة، فإنه قد ارتوى من عيون الفلسفة اليونانية، وعقائد اليهود والنصارى والفرس والهنود، ودبت في روحه نظريات الفيض والإشراق والحلول ووحدة الوجود، فأضحى تراثا

لا علاقة له بزهد وتصوف الجيل الأول، وغدت الخيوط التي تربطه بالإسلام أوهن من خيوط العنكبوت.

ثم طلع نجم التصوف الطرقي، فازدادت الهوة اتساعا حيث تعقدت التربية السلوكية بظهور نظام المشيخة الطرقية، فتعددت الطرق الصوفية، وتفنن الشيوخ في وضع القواعد والضوابط ذات الطابع التكليفي، وكذا إلزام المريد بأذكار وعادات وأعمال كثيرا ما تتنافى مع مبادئ السنة النبوية وروحها.

كما واكب تطور التصوف الطرقي، أدب نثري وشعري ملئ بموضوعات تتعلق بمدح الشيوخ وتعظيمهم، وبشطحات تعبر عن حالات نفسية ووجدانية غير منضبطة؛ لا تخضع لعقل ولا شرع، أو موضوعات تركز على كرامات الشيوخ وقدرتهم على التأثير في النفوس، والتدخل في شخصية المريدين، وتوجيه إراداتهم، بل التدخل والتصرف في أمور أخرى لا داعي لذكرها، أو أذكار وأوراد وأحزاب من وضع الشيوخ، يتلوها ويرددها المريدون في زواياهم، أو في بيوتهم كل يوم؛ وهي كلمات وصيغ، أو نصوص نثرية، إذا عرضت على الكتاب والسنة اتضح ضلالها وانحرافها.

2- شيخ التربية ضروري أم لا ؟

إن أسلوب التلقي الذي ينتهجه المريد مع شيخه الطرقي، لا يخلو من عيوب معرفية وتربوية وأخطاء تعبدية وشرعية، ذلك أن هذه العلاقة تجعل المريد محصورا في دائرة مغلقة، بحيث يكون الشيخ بمثابة النواة المركزية، والمريدون عبارة عن إلكترونات تحوم حولها. ومن ثم فإن المعارف والأفكار التي يكتسبها المريد يستمدها من روح شيخه وشخصيته؛ إما يقظة وإما مناما، فيتشكل عنده نمط فكري واحد ينتظم من خلاله وبواسطته تصوره الوجودي والكوني، وكذا حياته الاجتماعية والدينية. وهكذا تغدو عين الشيخ المصدر الوحيد للإلهامات والإشراقات المعرفية. وبما أن المريد ينظر إلى شيخه الطرقي بعين الرضا

والمحبة والتقديس، فإن عقله عاجز عن إدراك ما يمكن أن يصدرعنه من أخطاء وهفوات، وكيف يصدر ذلك عن الشيخ الكامل والقطب الرباني صاحب الأحوال والمقامات؟!!! فالدين هو ما يفهمه شيخه، والعبادة هي التي يمارسها ويدعو إليها.

ومما له علاقة بأسلوب التلقي المشار إليه ما يتلقاه المريد عن شيخه من الأوراد التي بواسطتها يتقوى قلبه وتصبو نفسه نحو الترقي في الأحوال والمقامات، بيد أن هذا الترقي كثيرا ما يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجذب أوالفناء، مما قد يدفع به إلى العزلة التامة عن المجتمع، وهذا ما لا يحصل للمسلم الذي يذكر الله كما أمر، وكما بين نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه، في سنته المطهرة. قال الفقيه أحمد بن تيمية: «وكذلك العباد، إذا تعبدوا بما شرع الله من الأقوال والأعمال ظاهرا وباطنا، وذاقوا طعم الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله به رسوله، لوجدوا في ذلك من الأحوال الزكية والمقامات العلية والنتائج العظيمة، ما يغنيهم عما قد حدث من نوعه كالتغبير ونحوه من السماعات المبتدعة الصارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد لفقها بعض الناس»[1].

وقال الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي:

«إن اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود، لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفا. أما أولا فإنه سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي، لأنه مضاد لها. وأما ثانيا فإنه إذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس ضراوة وأنسا به، حتى يسري معها في أعمالها، ولا سيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج. فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعي فيصير سابقا له، وإذا صار سابقا له صار العمل الامتثالي تبعا له وفي حكمه، فبسرعة ما يصير صاحبه إلى المخالفة، ودليل التجربة حاكم هنا.

1 - أحمد بن تيمية، "اقتضاء الصراط المستقيم"، ص. 282، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419.

وأما ثالثا، فإن العامل بمقتضى الامتثال من نتائج عمله الالتذاذ بما هو فيه، والنعيم بما يجتنيه من ثمرات الفهوم، وانفتاح مغاليق العلوم. وربما أكرم ببعض الكرامات، أو وَضع له القبول في الأرض فانحاش الناس إليه، وحلقوا عليه، وانتفعوا به، وأموه لأغراضهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم...»[2].

لاحظ معي أيها القارئ اللبيب كيف نبه المحقق الأصولي ابو إسحاق على هذه المسالة الدقيقة، وبين فيها أن اتباع الهوى يجر المسلم إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود. فالشيخ الطرقي الذي وضع أورادا وصيغا للذكر على طريقة غير طريقة الشرع الحكيم، وعلى منهج لا عهد لأصحابه والتابعين به، يكون قد ابتدع في أمر تعبدي وقفي، لا مجال فيه للاجتهاد أو إبداء الرأي، وإن بدا له أن هذه الأوراد والأذكار تدور في فلك ما هو محمود ومحبب إلى الله سبحانه. وهذا باب من الأبواب التي سلكها كثير من السالكين والعباد فزلت فيها أقدامهم.

وفيما يتعلق بالشيخ الطرقي باعتباره شيخ تربية، أقول متسائلا، هل يتوجب على المسلم المتعلم أن يتخذ شيخا من شيوخ التربية، يسلك به طريقة معينة في العبادة وتزكية النفس، أم يقتصر على شيوخ العلم والتعليم ويتفقه على أيديهم؟.

ليس مثلي من يجيب عن هذا السؤال أو يحسم فيه، ولكني "أعطي القوس باريها" كما قال الشاعر:

يا باري القوس بريا ليس تحسنه

لا تفسدنّها وأعط القوس باريها

أقول وبالله التوفيق، ذكر عبد الفتاح أبو غدة في هامش من هوامش تحقيقه لكتاب "رسالة المسترشدين" لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، ما نصه:

«وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدث النظار، أبو إسحاق إبراهيم ابن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحب كتاب "الموافقات" و"الاعتصام" وغيرهما

2- أبو إسحاق الشاطبي، "الموافقات في أصول الشريعة"، المجلد 1، الجزء 2، ص 133-134، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

من الكتب النفيسة الباهرة، المتوفى سنة 790، من غرناطة قاعدة الأندلس، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي، خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة 792 رحمهما الله تعالى.

كتب إليه يسأله عن مسألة وقعت في غرناطة، واختلفت فيها انظار العلماء، وكثر فيها القيل والقال، وهي: هل على السالك إلى الله تعالى، أن يتخذ لزاما شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له ان يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟

فكتب إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى كتابة العالم المنصف المخلص، فقال له ما خلاصته، كما في كتابه "**الرسائل الصغرى**"، ص. 106 وما بعدها، وص. 125 وما بعدها:

"الشيخ المرجوع إلي في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية، وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس ضروريا لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيده به من باب الأولى. وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

اما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حجب انفسهم كثيفة جدا، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مزمنة، وادواء معضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتاخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم، كالحارث المحاسبي، وابي طالب المكي، وغيرهما، من قبل انهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره ائمة المتاخرين، مع انهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها، وسوابقها ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة -أي المسلوكة- التي انتهجتها اكثر السالكين، أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم انهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض. ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون اثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد»[3].

يستفاد من جواب محمد بن عباد النفزي شيخ الصوفية في عصره، أن شيخ التعليم هو المعول عليه في تحصيل العلوم والمعارف، وهو قبلة كل سالك يسلك سبيل العلم والاستقامة، ويريد التزود للدار الآخرة. والأحاديث النبوية في طلب العلم وكتبه وتحصيله وارتياد مجاله كثيرة جدا، كما أن علماء الأمة وفقهاءها كتبوا في هذا الموضوع رسائل ومصنفات عديدة، والنبيﷺ اشار في أحاديثه إلى قدر العالم واهميته وعلو مرتبته، وكونه افضل من العابد، لأنه يفقه الناس ويعلمهم امور دينهم ودنياهم. وإذا استقرانا هذه الأحاديث المتعلقة بالعلم والعلماء لا نجد فيها ذكرا لشيخ التربية أو الطريقة، لأن العلماء الأتقياء الربانيين المشار إليهم في الأحاديث النبوية هم أولى الناس بتربية السالكين المتعلمين، فهم يقذفون في قلوب المتعلمين علوم الكتاب والسنة وغيرها من العلوم، مصحوبة بالخشية والتواضع واستحضار عظمة الله سبحانه، إلى غير ذلك من

3- عبد الفتاح ابو غدة، تحقيق "رسالة المسترشدين"، ص. 39-40، دار السلام، ط. 5، 1409/ 1988.

المعاني الروحية والإيمانية التي تنور قلوب أولئك المتعلمين، فيتعلمون العلوم والمعارف كما يتعلمون مبادئ التربية، والاستقامة، والأخلاق الحسنة، ومحبة الله ورسوله. لهذا جاء في نص الجواب: ،وهذه هي الطريقة السابلة اي المسلوكة التي انتهجها اكثر السالكين، وهي أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم واستصلاح الأحوال بطريقة الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض،، وفي قوله رحمه الله: ،اعتماد شيخ التربية هو طريقة الأئمة المتاخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم يذكرنا بحديث النبيﷺ: ،**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم**،[4]. فالأولى اعتماد شيخ التعليم لأنه الأصل، اما شيخ التربية فلم يكن له ذكر في القرون الأولى، وإنما ظهر في القرون المتاخرة بسبب استشراء داء البلادة وتكاثر أصحاب الحجب والعلل النفسية، وأمراض القلوب والغفلة. ولا يفوتني أن أنوه بالنزاهة العلمية، والموضوعية التامة لهذا العالم الجليل محمد بن عباد النفزي رحمه الله، حيث لم تمنعه مشيخته الصوفية من ترجيح كفة شيخ التعليم، والانتصار للعلم والفقه، ومنح الأولوية والأسبقية لهما، في حين جعل دائرة شيخ التربية أو شيخ الطريقة ضعيفة جدا، لا تضم إلا "من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس".

فتامل معي أيها القارئ الفطن، واستعمل ذهنك الثاقب، وانظر كيف كان علماء القرون الماضية من أصحاب الذوق الصوفي النقي يفهمون التصوف، ويقيدونه بالشريعة، ويضبطون قواعده بضوابط الكتاب والسنة، حتى تذوب ماهية التصوف في ماهية الإسلام، وتتلاشى علامات التمييز، ويبقى الحق هو ما جاء به القرآن وكلام الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن هذا النهج القويم، وجعلوا شيخ التربية او شيخ الطريقة، أولى من شيخ التعليم. بل اعتبروا تحصيل العلوم سببا في حرمان النفس من التزكية

4- حديث صحيح رواه البخاري.

والاستقامة والترقي في مدارج الإيمان « أو مانعا يحول دون الوصول إلى عالم الأذواق والحقائق الروحية والمعارف الكشفية والإلهامية!!، ناهيك عن الاعتقادات الفاسدة الضالة، المتعلقة بذوات هؤلاء الشيوخ، وكراماتهم وتصرفاتهم في النفوس والعوالم!!

ويقول شيخ الإسلام احمد بن تيمية رحمه الله في معرض الحديث عن شيخ التربية أو الطريقة، «ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين، فلا حاجة به إلى ذلك. ولا يستحب له ذلك، بل يكره له. وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدبونه، لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم، أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه، فإنه يفعل الأصلح لدينه. وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده»[5].

بعد أن أشار شيخ الإسلام احمد بن تيمية إلى أن السالك ملتمس الهدى لا يلزمه "الانتساب إلى شيخ" ويقصد شيخ الطريقة، بل "لا حاجة به إلى ذلك"... نبه في آخر كلامه على مسالة التفريط، إذ قال، «وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه»، وإلا فهو طلب الهدى على وجهه لوجده. وهذا ما يلاحظ في عصرنا، إذ تجد معظم المريدين الذين يلتفون حول شيخ من شيوخ الطريقة، قد فرطوا في تحصيل العلوم والتفقه في الدين، واستثقلوا ذلك لما فيه من العناء والمشقة، واستوعروا طريق العلم، وقالوا نحن ضعفاء ولن يصلح أحوالنا إلا شيخ طريقة صوفية، ونسوا أن أول ما أمر به الله تعالى القراءة وطلب العلم، حيث يقول جل وعلا في سورة العلق، «اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم». أي أنه أوجب علينا القراءة، وتحصيل العلم، وتدبر القرآن، وفي ذلك حث على إعمال العقل، وتحريك آليات

5- احمد بن تيمية، المرجع السابق، ص. 514.

الذهن وتفعيلها، وتفجير الطاقات الروحية الكامنة في القلب بواسطة التفكير والتأمل والاستدلال، مع الاسترشاد بالوحي كتابا وسنة، والجلوس مع أولي العلم من العلماء والفقهاء الربانيين.

أما الارتماء في أحضان شيخ طرقي، والاعتماد عليه وحده في عبادة الله وصلاح النفس وتزكيتها وإبطال العمل بمقتضيات "اقرأ باسم ربك"، وما يتبع ذلك من تدبر وتأمل، وتحصيل وإرادة، واستغلال لآليات ومناهج المعرفة، وربط ذلك كله بفقه الواقع ووظيفة الاستخلاف، فإنه تفريط ما بعده تفريط، وتقصير في القيام بواجب تحصيل العلم والمعرفة، ويكون السالك بذلك قد طلب الهدى على غير وجهه، إذ كما قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية "لو طلب الهدى على وجهه لوجده".

ويقول الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه، "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، وهو يتحدث عن "ابتلاء الإسلام بالمذاهب وتقديس الأموات"؛ ،... ويلتحق بالأمرين المذكورين امر ثالث، وإن لم تكن مفسدته كمفسدتهما، ولا شموله كشمولهما، وهو ما صارت عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة، فقد كان أول هذا الأمر، يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة، وأعرض عن الدنيا وصد عن زينتها، ولم يغتر ببهجتها، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقا إلى الدنيا، ومدرجا إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكا إلى أبواب اللهو والخلاعة، ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة، فيلقن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا وتقربهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة، على أعراف يتعارفوها، ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع وخروج عن كثير من آدابه. والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا وارغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى وأخشاهم له في الظاهر فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم. فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب،

وإيقاعها على ابلغ الوجوه. بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة لموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية.

ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه، وغسلها من الطواغيت الباطنة، والأصنام المستورة عن الناس، كالحسد والكبر والعجب والرياء ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه مبلغا عظيما، وارتقى مرتقا جسيما، ولكني اكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده، فإن في القوارع القرآنية والزاجر المصطفوية، ما يغسل كل قذر، ويدحض كل درن، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء. فأنا احب لكل عليل في الدين ان يتداوى بهذا الدواء، فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا له متفهما لمعانيه، باحثا عن مشكلاته، سائلا عن معضلاته ويديم النظر في كتب السنة المعتبرة عند أهل الإسلام، كالأمهات الست وما يلحق بها. ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله ﷺ في ليله ونهاره، ويتفكر في اخلاقه وشمائله، وهديه وسمته، وما كان عليه أصحابه وكيف كان هديهم في عباداتهم ومعاملاتهم. فإنه إذا تداوى بهذا الدواء ولاحظته العناية الربانية، وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير مع ما له من الأجر الكثير، والثواب الكبير، في مباشرة هذه الأسباب، وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل، ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع، فقد نال بتلك الأسباب التي باشرها أجرا عظيما، لأنه طلب الخير من معدنه، ورام نيل الرشد من موطنه، فكان له في تلك الأشغال من الأجر ما لطلبة علم الشرع. لأنه قد جهد نفسه في الأسباب، ولم يفتح له الباب.

وبعد هذا كله فلست اجهل أن في رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية، من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة، والمشي على الطريقة المحمدية والصراط الإسلامي، مع كونه قد صار من تصفية باطنه من كدورات الكبر والعجب والحسد والرياء ونحوها، بمحل يتقاصر عنه غيره، ويعجز عنه

سـواه، ولكني في هذا المـصنف بسـبب الإرشـاد إلى العـمل بالكتـاب والسـنة، والتنفير عما عداهما كائنا ما كان. فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده، أن يتسبب إلى ذلك بسبب خارج عنهما من رياضة، أو مجاهدة، أو خلوة، أو مراقبة، او ياخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئا من الاصطلاحـات المـوصلة إلى الله عندهم، بل يطلب علم الكتـاب والسنة، ويأخذهما عن العلماء المتقنين لهما المؤثرين لهما على غيرهما، المتجنبين لعلم الرأي وما يوصل إليه، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه، فإنه إذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة، وظفر بهدي الصحابة، وسلم من البدع كائنة ما كانت، فعند ذلك يحمد مسراه، ويشكر مسعاه، ويفوز بخير أولاه وأخراه،[6].

لقد أحسن الإمـام مـحمـد بن علي الشـوكاني الكلام عندمـا تعـرض لمسـالة الموازنة بين سلوك المتصوفة وسلوك غيرهم، ممن يتقيد بسنة النبيﷺ وسنة الصحابة والتـابعين، وأثنى على أهل الطائفة الأولى قائلا: ,ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنيـة... مبلغا عظيما،، أو قوله: ,فلست أجهل أن في هذه الطائفة المسماة بالصوفية من قد جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المظهرة...،، لكنه عقب قائلا: ,فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده أن... من رياضة أو خلوة... أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطرق الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم... بل بطلب علم الكتاب والسنة...،.

كأني بهذا العالم القدوة يعض بنواجذه على سنة نبيه، وهو يرغب الناس في طلب الهـدي من الكتـاب والسنة، والإعـراض عـمـا سـواهمـا من الطرق التي قـد تفضي بسـالكيها إلى ما لا يحـمـد عقباه، لقد كـان هذا العالم رحـمه الله للعلم مجمعا، وللدين مفزعا، وعلما في علمه وزمانه.

6- الإمام محمد بن علي الشوكاني، "ادب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم 1419-1998، ص. 261.

وبعد، أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون القارئ اللبيب ذي الراي الثاقب قد انقدح في قلبه، واستقر في عقله، أن القدوة المثلى لا تلتمس في شيوخ الطرق الصوفية، وإنما تطلب من معدنها الجوهري وعينها الفياضة؛ محمد صلوات الله وسلامه عليه، وصحابته ومن على أثرهم من العلماء الربانيين إلى يوم الدين.

لكن قد يقول قائل إن العالم الرباني غدا كالكبريت الأحمر، أو دونه بيض الأنوق، فانى لي بمن سياخذ بيدي ويقيني المهالك؟ أقول له: لا يكون هذا الأمر مسوغا لك أن تتخذ شيخا طرقيا، يرشدك ويقيك المهالك، لأننا معشر المسلمين أمة "اقرا"، إن فقدنا العلماء فلن نفقد القرآن لأنه محفوظ، ولن نفقد السنة لأنها محفوظة ايضا حسا ومعنى. ويستحيل أن يخلو زمان من وجود عالم رباني؛ قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق»، قال محمد بن إسماعيل البخاري: «وهم اهل العلم»**[7]. ثم إننا لا نقدس الشيوخ الطرقيين ولا شيوخ العلم، بل لو افترضنا خلو قرية أو مدينة من عالم رباني يسترشد به الناس، فإنه لن يكون ذلك مانعا من معرفة الحق والوصول إلى الله سبحانه وتعالى، لأن كتاب الله موجود والسنة مسطرة بين أيدينا. وهذا ما أشار إليه عالمنا النحرير الشوكاني بقوله: «فانا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا متفهما... إلى... فاز بكل خير».

ثم إن وجود الشيخ الطرقي أو العالم الرباني ليس شرطا في نجاتنا، اي أن الفوز بالجنة ليس متوقفا بالضرورة عليهما، وما اكثر المسلمين الذين شهد لهم الناس بالصلاح والاستقامة، مع أنهم لم يلازموا شيوخ الطرق ولا شيوخ العلم.

إن المنهج الصحيح لضبط السلوك وتفجير الطاقات العقلية والروحية، وتسيير السبل لتحقيق الاستخلاف، هو منهج الكتاب والسنة. لكن قوما - غفر الله لهم آثروا شخصية الشيخ الطرقي على شخصية الرسول ﷺ.

7- انظر "فتح الباري، شرح صحيح البخاري"، باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من امتي..." من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ج 15، ص. 9087، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط. 1، 1420/ 2000.

ولا يقولن قائل إنهم يحبون الرسولﷺ، أكثر مما يحبون شيوخهم.. هذا مستحيل فلا يمكن لشخصين أن يتغلغلا في قلب واحد. قال تعالى، **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾**[8].

فمن أحب النبيﷺ حبا ملك شغاف قلبه، لا يستطيع حب غيره بالقوة نفسها. وكذلك من أحب شيخه وربط قلبه به، وحفظ صورته في خياله، وكان ملازما له -حيا أو ميتا- لا يفتر عنه طرفة عين، يصعب عليه أن يتوجه إلى روح نبيهﷺ ويحبه بالقوة نفسها.

وأخيرا شتان بين من يستلهم روح النبيﷺ وشخصيته، ويكثر من ذكره والصلاة عليه، ويقتفي أثره ويهتدي بهديه هدي الفطرة، وبين من يستلهم روح شيخه الطرقي وشخصيته، ويثني عليه ويمدحه، ويصحبه في خياله نوما ويقظة. وشتان بين شخصية رسالية تبني رجال الدنيا والآخرة، وتؤسس أمة الاستخلاف، وشخصية طرقية مجالها الطريقة، والزاوية والأوراد والطقوس، وغايتها استغفال واستعباد المريدين والأتباع.

3- رجوع السفينة إلى شاطئ الأمان :

وبعد، أحمد الله سبحانه وتعالى أن رد السفينة إلى الساحل وشاطئ الأمان بعد أن أوجعتها ضربات الأمواج العاتية. لقد كانت رحلتي الصوفية -سواء أيام الخلوة التي دامت تسعة عشر يوما، أو خلال السنوات السبع التي قضيتها مع التجربة الصوفية في فرنسا- مليئة بالاكتشافات في عالمي النفس والثقافة الدينية، كما أن غرائب هذه الرحلة، وعجائبها ومظاهرها، ومعانيها أثرت في شخصيتي تأثيرا قويا حتى كأنني ولدت للمرة الثانية. والحقيقة أن طبيعة الرحلة الصوفية أهول من السيل بالليل، وطريقها وعر ملئ بالأشواك، وأكثر ما يتراءى لصاحبها من معاني وحقائق، هي أكذب من البرق الخلب، و"رب غيث عاد عيثا"،

8- سورة الأحزاب، آية 4.

ووبل صار وبالا. نعم هذا الذي حسبته غيثا، كان سيقذف بي في كهوف تركيا أو الهند، أو وسط غاباتها هائما على وجهي...!!!!

لم أكن أتصور وقوع هذه الأمور الفاسدة قبيل الخلوة، بل كان أملي يتلخص في تربية النفس، ومجاهدتها وتزكيتها، والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. لكن كيف يا ترى طرأ هذا الخور والهذيان، وحضرتني تلك الخيالات، والرؤى الفاسدة المضلة؟! لقد كانت نيتي صادقة، غير أنني أخطأت الطريق عندما مارست الخلوة.

"قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل. وإذا كان صوابا، ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا. والخالص: ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**﴾، وفي قوله: ﴿**ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾.

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه -أحوج ما هو إليه- هباء منثورا. وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبيﷺ: "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد"، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا. فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء"[9].

إن الخلوة الأربعينية التي يحث عليها أرباب التصوف مريديهم وأتباعهم، لا أصل لها في الكتاب والسنة، يقول محمود عبد الرؤوف القاسم: "الخلوة (أو العزلة): طقس إشراقي أساسي، لابد منه في السير إلى الجذبة، مارسه الإشراقيون منذ أن اكتشف إبليس أحبولة "الإشراق"، التي كانت على مدى التاريخ، ومازالت، تسمى "المعرفة"، وجاء إشراقيو المسلمين فغلبوا عليها اسم "الصوفية والتصوف".

9- مدارج السالكين.

كان إشراقيو الأمم، وما زالوا، يمارسون الخلوة في كهوف الجبال، والوديان وفي شعابها، وفي أعماق الغابات، أو في كهوف (غرف صغيرة) تبنى في المعابد خصيصا لهذه الغاية.

ومثلهم تماما، مارسها متصوفة المسلمين، لكن قرونهم الأولى، استعاضوا عن كهوف المعابد بخلوات في بيوتهم، لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا يعرفون الإسلام ويفهمونه، وكانوا يعرفون أن هذه الزندقة غريبة عن الإسلام، فكل من عرف بها أقاموا عليه حد الردة.

وتوالت الأيام، وشيئا فشيئا فعلت السموم الصوفية التي كانوا ينفثونها بهدوء، فعلها في المجتمعات الإسلامية، ففشا فيها الجهل والخرافة، وأخذ كهان الصوفية حريتهم بإعلان عقيدتهم الفاسدة والدعوة إليها، وسموها أسماء فيها من الوقاحة بقدر ما فيها من الجرأة والافتراء على الله سبحانه، وبنوا لها هياكلها الخاصة التي سموها "الخانقاه"، وفي الخانقاهات أقاموا، وفيها أقاموا كهوف الخلوة،[10].

قال ابو حامد الغزالي، ،وفي العزلة خلاص، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور، ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا،[11]؟؟

كما أن شيوخ الصوفية ينصحون مريديهم بالإكثار من الجوع والسهر والتزام الصمت التام.

وقال الشبلي، ،كنت في بدايتي إذا غلبني النوم اكتحل بالملح فإذا زاد علي الأمر أحميت الميل فاكتحل به،[12].

هذه الممارسات والسلوكات التي يطلق عليها الصوفية اسم المجاهدة او الرياضة النفسية، بعيدة كل البعد عن وسطية الإسلام وهديه، ومنافية

10 - محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية، الطبعة الثانية، عمان، الأردن، 1413 ص.334-335.

11 - ابو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 2، ص. 250.

12 - ابو نصر السراج الطوسي، كتاب اللمع، نشر لجنة نشر التراث الصوفي، القاهرة، 1960م، ص. 270.

لأهدافه السامية القائمة على بناء المجتمع الإسلامي، وإقامة الاستخلاف في الأرض... وكما أصابتني سهام الخلوة بما تشتمل عليه من جوع وسهر وصمت دائم، حيرتني التغيرات النفسية والروحية العميقة التي باغتتني بعد يومين على بدء ممارستي للذكر بالاسم المفرد. لقد كان لصدى الموسيقى والأصوات والأذكار الجميلة وقع قوي في نفسي مما دفعني إلى التفكير في إقامة قطيعة كلية مع المجتمع خوفا على هذا الكنز من الضياع!!

والخلاصة أن الحالة النفسية التي كنت أعيشها كانت أشبه بحال من الأحوال النفسية التي تعتري الصوفية. وكثيرا ما يطغى الحال على العقل والعلم عند أهل التصوف، فيحصل الزيغ وتظهر بعض الشطحات، فإن كل حال لا يصحبه علم غالبا ما يكون من خداع الشيطان. يقول العلامة محمد ابن قيم الجوزية: «والبلية التي عرضت لهؤلاء، ان احكام العلم تتعلق بالعلم وتدعو إليه. واحكام الحال تتعلق بالكشف. وصاحب الحال ترد عليه أمور ليست في طور العلم.. فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره، تعارض عنده العلم والحال.. فلم يجد بدا من الحكم على احدهما بالإبطال.

واعلم أن المعرفة الصحيحة: هي روح العلم. والحال الصحيح: هو روح العمل المستقيم. فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقا للعلم: فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة. ولا ينكر أن يكون لهذه الروح احوال، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها. فمتى عارض الحال حكما من احكام العلم، فذلك الحال إما فاسد وإما ناقص. ولا يكون مستقيما أبدا.

فالعلم الصحيح والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة، والحال الصحيح، وهما كالبدنين لروحيهما»[13].

وقال أيضا: «من أحالك على الحال فما أنصفك. فإنه أحالك على أمر مشترك بين الحق والباطل. فإن كل من اعتقد شيئا وطلبه صادقا، واستفرغ وسعه في

13- مدارج السالكين، ج2، ص. 112-113.

الوصول إليه، كان له لا محالة في حال ليست لغيره بحسب صدقه في طلبه، وجمع همته وقصده عليه. وهذا يكون للأبرار والفجار، بل لأولياء الله وأعدائه. فيكون الرجل له شهود بمشهوده، وحال في طلبه، لا يوجب كونه حقا ولا باطلا. فإن كل من اعتقد عقيدة، وارتاض وصقل قلبه بانواع الرياضة، وجزم بما اعتقده تجلت له صورة معتقده في عالم نفسه. فيظن ذلك كشفا صحيحا وإن كان صادقا في طلبه وحبه لما اعتقده كان له فيه حال وتاثير بحسبه. فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به.

ومن ههنا دخل الداخل على اكثر السالكين وانعكس سيرهم، حيث أحالوا العلم على الحال وحكموه عليه.

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين بخلاف هذا، وهو إحالة الحال على العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به وقبول حكمه. فإن وافقه العلم، وإلا كان حالا فاسدا، منحرفا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم. فالعلم حاكم والحال محكوم عليه. والعلم راع والحال من رعيته. فمن لم يكن هذا اصل بناء سلوكه، فسلوكه فاسد. وغايته الانسلاخ من العلم والدين، كما جرى ذلك لمن جرى له. والله المستعان»[14].

وقال أيضا: «وصاحب التمكين يتصرف علمه في حاله، ويحكم عليه، فينقاد لحكمه، ويتصرف حاله في حلمه، فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم، فيجيبه ويلبي دعوته. فهذه حال الكمل من هذه الأمة، ومن استقرا أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك»[15].

وقال أيضا: «فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلوات هيهات هيهات، إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والضلالات.

---

14 - المدارج، ج2، ص.223-224.

15 - المدارج، ج3، ص. 150.

فإن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل. وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**، وقال تعالى: **﴿كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾**.

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان واشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برايه، وأين يقع رايه من معرفة الطبيب؟ فالرسل اطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم. والله المستعان،[16].

نعم إن منطق الحال وليس منطق العقل والعلم، هو الذي أملى علي الأفكار السوداء المتعلقة باستهجان الزواج وتركه، والابتعاد عن الوظيفة والعمل. ثم الاغتراب في البلدان النائية متنقلا بين الزوايا أو الكهوف والغابات. وهذا سلوك يمجه العقل بله الدين الحنيف، يقول محمد بن قيم الجوزية رحمه الله:"إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته، عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس. فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتلي بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك. فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا.

16- المدارج، ج2، ص. 356.

فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه، وسار ناظرا إلى مراد الله منه، وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه اين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح تنعم او تالم، اخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده اهون عليه ان يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وامره. فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة. وبالله التوفيق»[17].

وهذا الكلام يتضمن حججا وبراهين غاية في الصواب والدقة، ويبين أن الانقطاع الحقيقي إلى الله يكون بطاعته وامتثال أوامره والاستجابة لندائه وتلبية دعوته مهما كان نوعها ووقتها، والا يفضل ما تميل إليه نفسه مثلا من التجريد والتخلي وعزة الوحدة إلخ... على ما يختاره الله له من معاشرة الناس ونصحهم وهدايتهم والتودد إليهم والصبر على أذاهم، وتلك وظيفة من وظائف الأنبياء، فكيف يتخلى عنها من يدعي مقام القرب والأنس بالله ومحبته؟؟؟!!! قال النبيﷺ في الحديث الصحيح، «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[18]. لو كان صادقا في أنسه بالله ومحبته له للبى نداءه وبادر إلى ممارسة وظيفة الأنبياء والرسل، لكنه احب نفسه وأنس بها وركن إلى كشوفاته وكراماته، واطمأنت نفسه إلى تجريده وخلوته، فذاك حظه ونصيبه، وليعلم أنه قد انقطع إلى نفسه ولم ينقطع إلى ربه. وهذا العبد ليس عبد الله وإنما عبد الحظوظ النفسية، يدور معها كيفما دارت ويحط رحاله في فنائها أينما حلت وارتحلت، وينزعج لفواتها أو لمكروه يصيبها فيكدر صفوها عليه.

17- محمد ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص. 211.

18- رواه احمد والبخاري في الأدب والترمذي.

ومن باب الجمع والتوفيق، يمكن القول بأن الخلوة الحقيقية والنافعة هي الخلوة بالله وسط عياله، أي أن المحب الصادق يعيش خلوته بالله ومعه، وهو في أهله بين أولاده، وفي غرفته أو متجره، أو إدارته وفي كل أعماله المشروعة.

مكثت خلال السنوات الثمانية التي تلت الخلوة الصوفية، متشبعا بأفكار المتصوفة ومتأثرا بمنهجهم في السلوك والعبادة. لكنني في منتصف هذه المرحلة الزمنية بدأت أستعمل حاسة النقد في تحليل بعض المعتقدات الشاذة التي سادت عند كثير من المتصوفة، مثل الأفكار المتعلقة بالمذهب الإشراقي، الذي عرف عند شهاب الدين السهروردي وغيره من الإشراقيين، أو الأفكار التي تدور حول نظرية العشق والمحبة، التي اشتهر بها ابن الفارض، وكذلك بعض ما كان يعتقده الحكيم الترمذي، وأبي حامد الغزالي، وابن عربي الحاتمي، من تصورات منحرفة وضالة متعلقة بطبيعة النفس، يظهر أثر الفلسفة اليونانية والفلسفات المشرقية، واضحا في ثناياها.

وهكذا بدأت شيئا فشيئا أتخلص من أدران وشوائب كانت عالقة بذهني، حتى انتهى بي المطاف، وأنا في خضم النقد الذاتي، إلى الشك في منهج العبادة والسلوك عند المتصوفة. وأظن أنني لو كنت متصوفا على طريقة صوفية متعلقة بشيخ حي او ميت حيث الأوراد والطقوس... لكان تخلصي من التصوف أصعب، لأن المتصوف الطرقي لا يحتكم إلا إلى شيخه وفلسفة طريقته الصوفية، وكذا إلى الإلهامات والإشراقات والرؤى، كما يكون مسلوب الإرادة بعدما تمكنت منه شخصية شيخه، بحيث لم يعد في نفسه متسع لغيره، فيكثر الحديث عنه وعن كراماته خلال النهار، ويراه في أحلامه أثناء نومه. وباختصار فإنه يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويتنفس بنفسه !!! ولذا فإن روحه لا تنفك ممتزجة بروح شيخه، ولا يتصور وجود عيب فيه، كما لا يطيق الاستماع إلى من ينتقده أو ينتقص من قدره.

وأحمد الله اني كنت قد ولجت هذا العالم الصوفي وانا احمل في نفسي هم التوبة وتزكية النفس، ثم تنسم عبير المعرفة الصوفية، فكانت المغامرة وكانت الرحلة. لكن لما هدأ بحر النفس، ولم تعد أمواج الذوق الصوفي متلاطمة، وانحلت سحائب الإشراقات، وغاب صدى الموسيقى والألحان الغريبة عن الصدر والقلب والدماغ، توقدت بإذن الله عين النقد من جديد، وصحوت بعد سكر، فتكسرت القيود، وعادت الإرادة إلى مجراها الطبيعي، حيث العبودية ونهج المصطفى الكريم صلوات الله عليه وعلى آله.

تم بحول الله وعونه،

تطوان، صفر الخير 1432

يناير 2011



المصادر والمراجع

1- عوارف المعارف، السهروردي، دار الكتاب العربي، ط 1، بيروت 1966.

2- الاسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب.

3- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن قيم الجوزية، دار ابن زيدون، بيروت.

4- صحيح البخاري.

5- سنن الترمذي.

6- سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي.

7- في النقد والأدب، إيليا الحاوي، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986.

8- الرعاية لحقوق الله، الحارث بن أسد المحاسبي.

9- موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج 9، مكتبة المعارف، الرياض 1419.

10- طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن قيم الجوزية؛ دار الكتاب العربي بيروت، د.ت.

11- الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن قيم الجوزية دار الكتب العلمية.

12- مدارج السالكين، محمد بن قيم الجوزية، ج 2، دار الجيل بيروت، د.ت.

13- مجموع الفتاوى، أحمد ابن تيمية.

14- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ابن عطاء الله السكندري مكتبة الثقافة الدينية، بيروت.

15- الرسائل القشيرية، أبو القاسم القشيري تحقيق د. فير محمد حسن، المكتبة العصرية.

16- الفوائد، محمد بن قيم الجوزية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1422 /2002.

17- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت 1410 /1990.

18- سنن النسائي.

19- سنن ابن ماجة.

20- جامع الترمذي.

21- المدهش، أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي، بيروت.

22- صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت 1999.

23- الترغيب والترهيب للمنذري.

24- الغيث الهامع، شرح جمع الجوامع، ولي الدين العراقي، طبعة 1، دار الكتب العلمية 2004.

25- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، الإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419/ 1998.

26- العقل تنظيمه وإداراته، د. هانئ عبد الرحمن مكروم القاهرة، 1417/ 1997.

27- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، بيروت، دار الكتب العلمية.

28- التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، ابن عربي، بيروت 1981.

29- فصوص الحكم، ابن عربي، تحقيق أبو العلا عفيفي، بيروت 1980.

30- الفتوحات المكية، ابن عربي.

31- هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل، بيروت 1984.

32- الإسرا إلى مقام الأسرى، أو كتاب المعراج، ابن عربي، بيروت 1988.

33- ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، ابن عربي.

34- لسان العرب، ابن منظور.

35- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم.

36- صحيح ابن حبان.

37- مختصر منهاج القاصدين، الإمام عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، دار الفكر، بيروت، 1422/ 2002.

38- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار الكتب العلمية، بيروت د. ت.

39- اقتضاء الصراط المستقيم، احمد بن تيمية، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419.

39- رسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي، تحقيق، عبد الفتاح ابو غدة، دار السلام، ط.5، 1409 /1988.

40- ادب الطلب ومنتهى الأرب، الإمام محمد بن علي الشوكاني، دار ابن حزم 1419 /1998.

41- فتح الباري في صحيح البخاري.

42- محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية، الطبعة الثانية، عمان، الأردن، 1413هـ.

43- أبو نصر السراج الطوسي، كتاب اللمع، نشر لجنة نشر التراث الصوفي، القاهرة، 1960م.



محتويات الكتاب

* * *

سلسلة شرفات 31

د. عبد الله الشارف

تجربتي الصوفية

مساهمة في فهم الكيان الصوفي

«... لم أكن خلال الأيام والأسابيع التي سبقت قدومي إلى فرنسا، أفكر في التصوف أو أقرأ عنه؛ وإنما كنت أحلم فقط بمتابعة دراستي الاجتماعية في جامعة باريس، لكن بعد انقضاء السنة الدراسية الأولى وحصولي على دبلوم الدراسات العليا المعمقة، فوجئت بانجذاب عميق نحو عالم التصوف، وإن المرء ليقف مستغربا حيال هذا الطارئ الذي يباغث طالبا عربيا حديث العهد بالجامعة الفرنسية، يحمل في باطنه آمالا وأحلاما متعلقة بالدراسة والمستقبل، وبعبارة أخرى إنه لمن المفارقات العجيبة، أن يقدم شاب من بلاد عربية مسلمة إلى مدينة أوربية قصد الدراسة والتحصيل ثم يقذف به في عالم التصوف بحثا ودراسة وممارسة؟!!...

وما هي إلا دقائق معدودة حتى فوجئت بنداء ينبعث من صميم قلبي وهاتف يهتف بي: إلى متى هذا النوم؟ إلى متى هذه الغفلة؟ ألا من يقظة توقظ عزمك؟...

ومرت الأيام وأثر ذلك الهاتف يزداد توقدا، وصوت النداء الباطني يزداد قوة وحدة، فعزمت على الخروج عن العادات والمألوفات، والاقتداء بأرباب العزائم المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى...

وأحمد الله أني كنت قد ولجت هذا العالم الصوفي وأنا أحمل في نفسي هم التوبة وتزكية النفس، ثم تنسم عبير المعرفة الصوفية، فكانت المغامرة وكانت الرحلة... و ... توقدت بإذن الله عين النقد من جديد وصحوت بعد سكر، فتكسرت القيود وعادت الإرادة إلى مجراها الطبيعي، حيث العبودية ونهج المصطفى الكريم صلوات الله عليه وعلى آله...».

د. عبد الله الشارف



الغلاف من تركيب الزمن

40 درهما